

عذراء كفر الشيخ

تصميم العلاف : جوده خليفة

رئيس التحرير

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

د . نظمی نوتا

عذراء كفر الشيخ



دارالمعارف

إلى السائرين في الظلمة ،
ومن يلوح لهم - من أنفسهم -
فجر جديد . . .
وأيضاً إلى ل . . .
محاولة فهم . . .

نظمي

كلنا رقيق الأرض

مقدمة جادة إلى قارئ جاد

« رقيق الأرض »

هذه هي التسمية العامة التي ينطوى تحتها كل إنتاجي الأدبي - نثراً وشعراً - منذ رسمت معاليه ومرامييه في سنة ١٩٣٦ .

فأما الأرض فهي هذا الكوكب .

وأما الرقيق فهم أنا وأنت -- أيها القارئ - وسائر من خلق الله ؛ فليست الأرض هي المزرعة . بل هي هذا العالم الكبير بظروفه وأوضاعه ، وليس الرقيق هم زراعتها ، بل هذا الجمع المجتمع مقيدين بهذه الظروف ، مستبعدين للأوضاع والمواضعات التي تنجم عن حياة الاجتماع .

وكل امرئ منهم رهين بالصورة التي يترأى بها العالم الخارجي في مرآة نفسه البعيدة الأغوار ، والتي ينظر إليها العالم الخارجي وكأنها سطح مستو لا عمق فيه ولا أسرار ولا ضرورة فيه ولا اضطراب ؛ وإنما الأمر كله نسخ لا تنطوي إلا على موضوعات تدخل في نطاق علم المنطق أو علم الأحياء أو علم الاقتصاد . . . !

فنحن بهذا سجناء في رحبة الأرض ، سجناء في طوايا نفوسنا ، بل

نحن شر من السجناء ؛ لأننا لا نعرف أغوار أنفسنا وأسرارها ، ونؤمن مع هذا بصواب نظرة العالم الخارجى ومقاييسه ؛ فقاييسنا وصيغ عقلنا مكتسبة من حياة الاجتماع التى هى سجن آخر رهيب لا يفهمنا ، ونقبل نحن - مع هذا - فهمه لنا غالباً فى إيمان وتسليم .

نحن لا نفهم أنفسنا ، ولكننا نخضع مع هذا لها ، لأنها «نحن» قبل كل اعتبار . ثم بعد هذا يديننا العالم بمقاييسه العمياء ، بل ندين نحن أنفسنا بمقاييس ذلك العالم فى كثير من الأحيان !

ألسنا إذن رقيقاً فى الأرض ؟ إذ نخضع دون فهم ولا اختيار لطوايا نفوسنا ، ولا نملك من ذلك فكاكاً . . . كالدخيلين فى الظلمة : عليهم أن يخطوا وفق حدود رسمها من يزعمون لأنفسهم بصراً ، وإنما هم تواضعوا على تخطيط لمعالم الأرض ، دون نظر لطباع السالكين . . . ! هذه هى الأرض ، وهؤلاء هم رقيقها المساكين .

فإذا تخطى واحد منهم الحدود المرسومة فتلك هى الجريمة ! جريمة هى ، ولكن فى طوايا النفس لا جريمة ، بل تيار مطرد ينتهى إلى نقطة لا بد منها بحكم اندفاع التيار واتجاهه . أما فى نظر «القوانين» فهذا التطور الطبيعى المحتوم جريمة تنصب لها الموازين . وأى موازين تلك التى لا تفرق بين الجواهر وأحجار الطواحين ؟

ولست عن «القوانين» التشريعية وحدها أتحدث ، بل عن كل ما هو عرف عام ومقاييس اجتماعية خلقية بوجه الإجمال ؛ لأنها تنظر إلى «أفعال» الناس فى ضوء ميت ، هو ضوء العقل الخارجى ، وصيغ المنطق

والموروثات .

أما العالم الحقيقي للإنسان فهو النفس المطوية على أسرارها في عالمها
المكون الذى تكتنفه الظلمة والحيوية .
وهذه هى مأساة رقيق الأرض الساكنين على تعدد أنواع رفهم وتباين
درجاته .

نحن عبيد نفوسنا التى نجهل أو نتجاهل حقيقتها الحية الخاصة بها ،
وإن كنا نعانينا ونزاولها . وعبيد محيطنا الكونى والاجتماعى بصيغة الجامدة
العامة بلا خصوصية أو تميز .
هذه مأسأتنا كلنا بلا استثناء ! على تفاوت فى الغفلة ، أو
الاستكانة ، أو الانطلاق !

نظمى لوقا
من رقيق الأرض

بين يدي هذه الرواية : أدب الدعوة وأدب التبصير . .

لم يكن بودي أن أقدم هذه الرواية إلا بما تقدّم به نفسها ولا زيادة ،
ولكني رأيت الأمر بما لا يخلو من « قلوب عليها أغلاقها » . . . فآثرت -
أخذاً بالأحوط - ألا يكون أدبي موضع لبس .

* * *

الأدب أدبان : أدب دعوة وأدب تبصير :
أما أدب الدعوة ، فهو - في يقيني - متمم بالفجاجة والسطحية
والسخف ؛ لأنه يهتم بالصورة الظاهرية : للسلوك البشرى ، ويدعو إلى
تغييرها غافلاً عن حقيقة ضخمة : أن السلوك البشرى ثمرة نهائية لسياق
طبيعى أشبه بالشجرة ذات الجذر والجذع والأغصان . وعبثاً ننادى بتغيير
الثمرة من غير أن نوجه همنا إلى ذلك السياق الطبيعى كله . . .
أما أدب التبصير فيقول بالتجسيد ما يقوله العلم بالتجريد : إن أى
مصادرة أو إهدار أو التواء لمرحلة من مراحل النمو الطبيعية - لا تودى
بالغاء هذه المرحلة ، بل إلى كونها طاقة حبساً ، تتلمس أقرب وأيسر
فرصة للتعبير عن نفسها فى مرحلة تالية من العمر ، ولا مناص من
هذا . . . !

فإن شئنا سلوكاً سوياً حقاً فلننشد له الجذور الصحيحة ، وسياق النمو
السوى فى شتى مراحله . أما إن اضطرب هذا السياق فالنتيجة الحتمية
ظهور آثار ذلك الاضطراب فيما بعد : إما مرضاً نفسياً ، أو ارتداداً إلى
المرحلة المهددة من العمر ، وكلاهما سلوك غير مرغوب فيه ، ولكنه نتيجة
طبيعية تماماً لأسبابه التى غفلنا عنها .

* * *

وإن كان لابد من دعوة نلصقها بأدب التبصير فهى الدعوة إلى
تصحيح الأصول والسياق إذا أردنا حقاً نخشى أنماط السلوك التى
لا نرضى عنها .

وكما أنه لا يجوز القول بأن الطب يدعو إلى الإصابة بالأمراض ؛ لأنه
يبين أسبابها الطبيعية - كذلك أدب التبصير لا يدعو للانحراف أو
الارتداد ، بل هو يبصرنا بأسبابه كى نتحاشاه . . .

ولنكن على يقين وهدى من أمرنا : أن الدعوة - وحدها - لا تجدى
فى صنع السلوك السوى ؛ فهذا نظر سطحي فج إلى أمور البشر
وأخلاقهم ؛ وإنما الصحيح حقاً هو فهم ارتباط الأفعال بأسبابها ارتباطاً
لا فكاك منه .

ثم إن الدعوة ليست من شأن الفن الصحيح ؛ فأدب الدعوة - فى
رأينا - أدب هابط فنياً .

وكان فراغى من هذه الرواية فى يناير سنة ١٩٤٨ . وطويتها مع كثير
من أعمال الأدبية الأخرى التى قصدت بها - فى فترة الشباب - أن أصور

قطاعات من آفانين الرق البشرى .

وقد آثرت - وأنا أنشرها بعد سبع وعشرين سنة - أن أدفع بها إلى الناس كما همى ، وفى مرجوى أن يراها القارئ فى إطارها الصحيح .
وفى مرجوى أيضاً أن يدرك القارئ الحصىف أن العذرية هنا ليست عذرية الجسد - فمالى بهذا اهتمام - بل عذرية القلب . والعذرية بهذا المعنى - كما لا يخفى - تنصرف إلى الرجال والنساء على السواء . . .
فقصارى بهذه الرواية أن تكون محاولة فهم للنفس البشرية ، وشمعة صغيرة فى طريقها الخافل بالظلمات .
وسلام على الصادقين . . .

دكتور نظمى لوقا

أستاذ الفلسفة بجامعة عين شمس

ديب الحياة

درجت «حورية» في ربوع هذه الدنيا منذ ولدت ، صورة متكاملة للحيوان الجميل الذى تضج فيه الحيوية والصحة والعنفوان ، الحيوان الجميل الذى لم يستأنسه البشر ، ولم يعرف في حياته كوابح اللجم ، فهو منطلق دائماً على سجيته في غير تردد أو توقف ، أو مراجعة ، إنه يعيش وكفى ! في جرأة وبراءة واطمئنان . . .

كم عمر هذا الحيوان ؟

ليس المعول في أعمار الحيوان على الأيام والسنوات ، فالحيوان لا يستطلع عمره في تقويم الشمس أو القمر أو النجوم ، بل يحس الحيوان بعمره عن طريق أطوار حياته . وأطوار حياته لا يعرفها بعقله . هيهات ! بل يحسها إحساساً في خلجات لحمه ونبضات دمه واهتزازات أعصابه .

لنقل : إنها كانت بحسابتنا نحن في نحو الثالثة عشرة . فأعتبر أنا وأنت أنها في سن المراهقة . . . أما هي فأحساسها بهذا الطور تبينه من أغوار جسدها في ذلك الديب الزاحف الظافر من الحبوة الفائضة والرغبات الغامضة والدوامات الفائرة المنبثة من أعماق مجهولة ، والنؤدية إلى أعماق أشد غموضاً وهولاً . . .

ولكن الحيوان الصغير الجميل الفوار بالحياة في عروقه ليس وحده . ولا يستطيع أن يكون وحده . فلا بد من تأثيرات ومن سدود ومن قيود . ومن السدود والقيود تنبت دائماً علامات الاستفهام ، وحيثما نجد علامات الاستفهام نجد الحيرة والعجب . ومع الحيرة والعجب يولد التفكير . ومع الثالثة عشرة بدأت « حورية » تنظر حولها ، وتنظر في نفسها ، وتفكر .

• • •

كان اعتقادها منذ وعت نفسها أن الزواج هو النتيجة الطبيعية الجميلة السعيدة لمرحلة البلوغ ، كانت تعرف هذا تماماً ، ولكن لم يحدث بتاتاً أنها ناقشته أو حاولت معرفة أسبابه ، كما أنها لم تحاول بتاتاً أن تناقش كل مظاهر حياتها ووظائفها الطبيعية . كالتنفس والطعام والنوم والنو . الفتاة . . في اعتقادها الفطري تكبر فتلبس كعباً عالياً وثياباً جميلة ، وتضع على وجهها المساحيق وعلى شفيتها الصباغ الأحمر ، وينهد ثدياها . فيقول الجميع :

— ما شاء الله ! قطوطة كبرت . . . صارت عروساً يتمناها الشبان !

ويأتى ابن الحلال الموعود ، فتدوى الزغاريد ، وتسود الضجة الصاخبة ، وتطل الفرحة من العيون جميعاً . فالزواج ولا شك هو فرحة العمر كله ، وأسعد حادث يمكن أن يقع فى حياة أى فتاة . ولو سألتها أى أحد منذ طفولتها عن مجرى حياتها كما تتصورها أو تتمناها - ما - ترددت «حورية» أن تقول بإيمان لا يحتاج إلى تفكير : «أكبر . وأتزوج . وأنجب أطفالاً» . . . ولا تتصور بعد ذلك شيئاً أو وراء ذلك شيئاً ، فالزواج والنسل هما القمة التى لا تعلوها قبة حتى فى دنيا الوهم والخيال والأمانى . . .

حياة كل تاريخها أنها نسخة لا تزيد ولا تنقص من أطوار التاريخ الطبيعى للكائن الحى ، كما يعرفها أصحاب علم النبات وعلم الحيوان وعلم وظائف الأعضاء .

بديهية تعلمتها من وحى الفطرة ، وأكدتها لها كل الذى شاهدها حولها فى بيئة المنزل والجيران وأحاديث الكبار .

أختها «هدية» تحدثوا بجمالها الفتان فى كل مجال ، فكان طبيعياً جداً أن تتزوج قبل الأوان . وأن يتحابلوا بشهادة من الطبيب على عقبة السن القانونية . وكانت «هدية» لا تكتم ضيقها بما فى ذلك القانون من تحكم سمج وفضول .

وعندما بكت «حورية» لما رأت أختها خارجة من البيت ، أخذتها «دادة» الجارية إلى المطبخ وضمتها إليها ضمّاً قوياً . وراحت بعينها الواسعتين المتوهجتين تسرى عنها بحديث أذهلها عن البكاء والدموع ،

فراحت تخرج ذلك الحديث بعينها وأذنبها وجوارحها كلها . كيف أنها
هى أيضاً عندما تنضج ثمار بستانها ستمضى فى نفس الطريق لتؤق ثمارها
فى بيت آخر؟ فهكذا خلق الله الفتيات . لا تطيب حياتهن ولا يعرفن
السعادة حين يستوى عودهن إلا إذا أنحن جناهن للزوج المقسوم . فلا
المهلبية ولا المشمش الحموى الذى لا نحب فى الدنيا شيئاً مثله يهاوى شيئاً
بجانب حلاوة الزواج . فهو بالاختصار خلاصة لذات الدنيا . ولهذا سموه
« دخول الدنيا ! » .

وشردت نظرات عينها السوداوين وظلت برهة طويلة لا ترمش
بأهدابها التى كانت مشهورة دائماً بالقرارة والطول والجمال ، لأنها كانت
قد طوحت بخيالها إلى ذلك العالم المسحور . فكأنها (سندريلا) تحلم
بقصر أميرها الجميل .

وكانت « حورية » يوم تزوجت أختها لم تبلغ العاشرة . فتاة غضة
البدن . يشبهونها بالبطة . لولا أنها ناصعة البياض . ولها شعر فاحم
كالليل ، متهدل كاللوج ، غزير طويل ، وعينان دعجاوان فيها حور
نادر . . .

ومن ذلك اليوم اقترن فى نفسها الزواج بالحياة وبالفرح وبالنعيم
المجهول . النعيم الذى قد تجهله اليوم ، ولكنها لا بد أن تعرفه يوماً . حين
يأتى الأوان .

* * *

وفى يوم من أيام هذه السنة ، وقد احتفلت بعيد ميلادها الثالث

عشر قبل أيام وجدت في نفسها ذلك الاضطراب الذى يصحبه وجوم ونوبات من الرغبة فى البكاء . ثم موجات من المرح والضجة ، ثم نظرات الريبة التى لا حقتها بها جدتها لأبيها ، هذه التركيبة العجوز التى تسيطر على كل شيء من أريكته الإستامبول . ثم همست الجدة لأمها شيئاً ، واحمر وجه الأم وردت على حماها همساً .

وبعد أسبوع ذعرت الصغيرة « حورية » لظاهرة لم تتوقعها فى نفسها بتاتاً ، ولكنها أدركت من تلك الابتسامة الغامضة التى ارتسمت على وجه أمها أنه لا محل للخوف . بل إن ذلك كان متوقعاً حدوثه لها بين وقت وآخر .

وعرفت الصغيرة « حورية » أنها لم تعد صغيرة
والتقت هى وبشائر فجر أنوثتها الأولى بوجه جديد ملاًها استغراباً ثم لم يلبث أن ملاًها فخراً : التقت هى ووجه العيرة . الغيرة الأنثوية . فقد كان يبدو فى حركات أمها الضيق ممزوجاً بعناية تبذلها على مفضل . فى حين أن الجدة أدنتها منها . وخاطبتها بخشونة ظاهرة لم يفتأ أن تحس تحتها بفخر ممزوج بسرور معربد بطويه الوقار فىأبى إلا أن يطل من العينين ونبرة الصوت .

- انتهى أوان اللعب مع الصبيان . لو كنت ابنتى فى زمنى ما رأيت بعد اليوم شكل الشارع ولا لون السماء إلا من وراء المشربية أو اليشمك .
زمن خرع . خسيس . خاسر !

وبعدها تلذذت بالإعراض والفتور اللذين لمستهما جيداً فى حركات

أما بضعة أيام . وتعلمت أن تفاخر وتكأيد بهذا الذى توجهت به الطبيعة
ففتحها شهادة التخرج من مدرسة الطفولة ، قبل الكثيرات من الأتراب .
والى هذا الزهو والاعتزاز بأنوثتها المزهرة قبل الألوان تدب «حورية»
بظهرها المستقيم وكشفها الذى لا يعرف الانحناء إلى الأمام ، فقد جنبها
ذلك الافتخار ما تقدم عليه كثرة المراهقات من ثنى الصدر إلى الأمام .
خجلا مما فوجئن ببروزه بين ليلة ونهار . أما هى فكانت تمشى عالية
الصدر مرفوعة الرأس . تتحدى ، وفى فيها فص اللبان تتشدد به فى
خيلاء ، وهى ذاهبة إلى مدرستها الثانوية فى حى العباسية ، حيث كانت
طالبة فى السنة الأولى . . .

وكان هناك سبب آخر لخيلائها : إنها خرجت من طبقة
«المفعوصات» ودخلت فى الطبقة الأخرى : الطبقة التى تضم بلا فروق ،
ولا حواجز ، جميع الأبلوات ، والتلميذات الناهديات . طبقة واحدة ،
الجميع فيها متساويات ، ولا فضل فيها لواحدة على أخرى إلا بالخلاوة ،
والفتنة ، وسطوة الشباب . . .

ولكن هل كانت «حورية» تعرف هذا كله ؟ . . .
تعرفه بعقلها ؟ كلا . . . ! بيد أنها كانت تحسه بفطرتها المتبقظة
لدبيب الحياة الناشط الظافر فى صدرها وعروقها ، ومعاففها التى طرأت
عليها الاستدارة ، والحرارة ، والتؤب !
تحسه بفطرتها باعثاً وطاقة دافقة ، أما ما وراء هذا كله فغموض ،

ولكنه الغموض الذى هو قوام كل سحر ، ومعدن كل حلم ، وفتنة كل أمل .

ماذا تريد ؟ ومن تريد ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟

أسئلة لم تطرحها كلها على نفسها بعد ، ولم تتضح صورها وموضوعاتها فى نفسها بعد . ولكنها واعية بالقوة الكامنة فيها . تلك القوة التى تدفعها منذ اليوم فى سيطرة قاهرة إلى شاطئ مجهول ، يقوم فوقه عالمها المسحور ، حيث فارسها الجميل الذى تهتز له كل جارحة فيها . من غير أن تعرف له كنهاً أو شكلاً . . . وحسبها أن تحس سلطانه عليها ، وحاجة تكوينها الجديد إلى رونقه وبأسه وشبابه . . .

وإنها لمشوقة إلى استيضاح مزيد من هذا الغموض الخافى عليها ما وجدت إلى ذلك سبيلاً : بالحس المتوفز ، والعين الفاحصة ، والأذن المرفهة ، والقلب المتلهف ، والخيرة الظائمة . . .

الهزة الأولى

- لا لعب بعد اليوم مع الصبيان . . .
هكذا فاجأتها في الصيف الماضي جدتها لأبيها ذات صباح .
ولم يسمحوا لها بالتزول كثيراً إلى الشارع . ولكن لم يزل في البيت
« صبيان » كثيرون يأتون للزيارة ؛ لأنهم من ذوى القرى . . . صبيان
كبروا كما كبرت ، ومعظمهم يكبرونها بثلاث سنوات أو خمس . وهى
على عادتها في « الشقاوة » معهم كلما حضروا : تجذب شعرهم ، وتخرج
لهم لسانها ، وعيناها تنوهجان بالمرح والسرور والحيوية :
وتحمر عينا الجدة وتونخها وتونخهم . ويدركون هم أكثر مما تدرك
« حورية » أن هذا العبث صار لا يليق . . . فيأخذونها بالجد ،
ويتحاشونها . ولكنها تصر على التحرش بهم من وراء ظهر الجدة كلما

وجدت سيلاً إلى ذلك . . .

وفى ذات يوم جاء « مدحت » ابن بنت عم أمها للزيارة ورأته ينظر إليها من تحت جفنيه ، ولا يلاعها كما كان يفعل فيما مضى . وأدركت فيه ارتباطاً كلياً كلمته . . . فاستناغت هذه اللعبة الجديدة . . . وغافلته وهو يغسل يديه وخطفت المشط الذى فى جيب سترته الخارجى ، فلم يجر وراءها ، بل نظر إليها واحمر وجهه ، فوقفت بعيداً عنه تمشط به شعرها فى تحد كمن تدعوه للجرى خلفها ، ولما يثست من ذلك هجمت عليه ووضعت المشط فى شعره صائحة :

- خذ مشطك الهزيل . . . إنه خائب مثلك !

ونكشت به شعره فى عنف ، فامتدت يده وقبضت على معصمها ليمنعها ، فلدت يدها الأخرى وجذبت خصلة من شعره جذبة قوية فكاد يصرخ ، وقبض على معصمها بغيظ وعيناها تبرقان بمزيد من التحدى ، كأنها تصبح به :

- أنجسر ؟ أتستطيع ؟

فشدّها إليه بعنف وقبلها قبله سقطت بين أنفها الدقيق وشفها العليا ، ولوى ذراعها كأنما يريد أن يؤلمها ويوجعها ما استطاع ، ثم دفعها إلى الخلف بكل قوته ، فوقعت على الحائط الآخر للدهليز . وحملق فيها بدهشة وخوف وغيظ ، ثم تركها فى موضعها وأدار لها ظهره ، وعاد إلى الحجرة التى بها أمها وجدتها ، فحبا على عجل وانصرف . . .

ووقفت هى وراء وصاوص النافذة تنسقط لفتاته ، فرأته يتلفت إلى

أعلى خمس مرات ويلوح بيده لأمها الواقفة في الشرفة ، ولكن عينيه كانتا تفتشان عن شيء آخر لا تعثران عليه . . . فازدادت دقات قلبها داخل صدرها الصغير ، حتى ضغطت عليه بكفها كأنما تمنعه من الهرب . . . ثم تسالت إلى حجرتها ووقفت تتأمل وجهها في المرآة . . . وتتحسس يديها أنفها وشفتيها العليا ، وقد فاضت نظراتها بالسرور والخيلاء ، وجربت نظراتها الجانبية ، وهزأت رأسها وتهدل شعرها ، ثم ارتقت على الفراش بوجهها ، فوجدت لبرودة المفرش على وجتيها الملتهبين وقعاً مستحجاً ، فجعلت تمرغ على صفحته خديها . ثم انتصبت واقفة فجأة وراحت تطرقع مفاصل أصابعها وتنط في الحجرة . وقد ضاقت بنشاط دمها إلى أن تذكرت حبليها فتناولته وقفزت به إلى أن انقطع نفسها ، فارتمت على مقعد وهي تضحك من نفسها . . . حتى إذا هدأت خرجت كالقنبلة تصرخ في أمها :

- أكل ياماما . . . جوعانة موت !

فالحيوان الصغير الجميل يستمرئ حياته كلها ، طعاماً ولهاواً . . . وحباً ! بمعنى واحد ، وطاقة واحدة ، وفي مستوى واحد . . .

• • •

وترقبت مدحت في الغد ، وفي الأيام التالية . . . ولكنه لم يظهر . . . فكانت تفكر فيه أحياناً . . . دقائق قليلة فحسب ، ثم يحرف نشاطها الدافق تفكيرها . . . ولا يترك لها هداة للمراجعة أو الروية أو الأسف . . . فتنتلق تعاكس الدادة السوداء ، وتحقق قطرة الجيران ،

«وتنط الحبل» ، أو تقرأ ماجدولين ، أو تنزل إلى رأس الشارع لشراء قطعة حلوى ، كى تمتع بنظرات الفتيان ، والشيوخ أيضاً وهى تنظر إليهم بعينين تبرقان سروراً وتحدياً واستعادة

وتخرج على صاحبة لها من بنات الخامسة عشرة تستمع إلى همسها المتقطع اللاهث حيناً ، والحالم الناعم حيناً آخر عن صاحبها الوسيم الذى يملك دراجة «رالى» ذات ثلاثة أجراس ، والذى يصاحب بدراجته قطار الترام الذى تركبه كل صباح إلى مدرسة بنات الأشراف مقدار خمس محطات !

وقد تشارك صاحبها «إنصاف» فى كتابة ردودها على رسائل «الروميو» ولا تفتأ تغريها بالاستجابة لرجائه فتقبله لا شىء إلا لأن «حورية» مشوقة أن تعرف منها المزيد عن الحب بصفة قاطعة واضحة لا تقتصر على الأحلام والأوهام والرسائل «المنقوشة» من المنفلوطى ، والإشاعات التى لا تعتمد على تجربة صحيحة

إنها تريد أن تعرف بأى ثمن وبأى شكل وبسرعة ؟ فإن تجربتها مع مدحت لم تكد تفقه منها شيئاً سوى اقتران الحب عند الرجل بالغضب والسخط والقسوة

وهى شخصياً لم يكن يهمها كثيراً أن تقاسى لو أن التجربة استمرت ، حتى تعرف بقية المسألة . ولكن هذا الفأر الخائب أدار ظهره ولم يعد ، كان واضحاً جداً أنه خائف منها ، وأنه ليس «روميو» بمعنى الكلمة .

واستمرت عيناها تبرقان بعد تلك الهزة الأولى ، فى انتظار المزيد

سى عز

الأب أول رجل فى قلب كل عذراء . . . وفى كثير من الأحيان هو الرجل «الأوحد» ذو ألف وجه فى حياة ابنته . ولكن ليس حينما يكون هذا الأب هو «سى» عز الدين .

نعم لابد من «سى» . . . إنها أهم كثيراً من «عز الدين» نفسه . . . فهو ليس رجلاً . بل هو رمز أو سلطة . أو وظيفة اجتماعية . إنه شئ رسمى ، وليس شخصاً من لحم ودم .

أيمكن أن يتراءى لك جندى المرور - مثلاً - شخصاً ذا جسد وأعضاء ووظائف حيوية ؟ إنه دائماً دفتر مخالفات ، وكمّ ستره مستعار ، ونور أحمر وأخضر وبرقائى وصفارة ، ولا يمكن أن يخطر لك أبداً أنه رغبات ، أو مصارين ، أو عنصر بشرى من عناصر تكاثر السكان !

كذلك «سى» عز الدين ! لا تتصوره أبداً بدون «سى» . حتى إن امرأته الفيئانة الأنوثة ، الفواحة بريحتها الندية ، والتي أنجبت منه بنتين - لم تستطع قط أن تجرده من «سى» . هذه . . . حتى في الخلوة ، لأنه بأكمله في «سى» لا يبقى منه شيء إذا نزع عنه ، ولهذا بقيت لاصقة به باستمرار .

وفي «سى» هذه تتلخص شخصية هذا الأب وهذا الزوج ، لم تحسه امرأته قط : «شخصاً» . ولم تحسه ابنته قط شخصاً ، إنه مجموعة أوامر ونواه وسلطة ونظام . . . هي بمجموعها نسخة من تربية أمه التركية ، مجموعة «أصول» . و «ترتيبات» ، بلا مزاج وبلا فردية ، وبلا خصوصية في الرأي أو الإحساس !

صنم خاو ، من طين ، أو خزف ، أو ذهب . سيان ، فهو مرهوب مرموق ، ولكنه خامد جامد ميت . تنقر عليه فيرن . . . لأنه لا قلب له ، ولا جسد له ، داخله هواء بارد راكد . . . وليس فيه من حرارة الأنفاس شيء . . .

إنه نظيف ساكن ، لا ينمو ولا ينقص . دائماً جميل ومرموق . أما البشر فيزدون وينقصون . ويصيبون ويخطئون . . . لا يعبدهم أحد . إنه قد يضحك . وقد يبسم . وقد يقطب . ولكنك تحس في جميع الأحوال ، ومهما كانت درجة الانفعال أنه صنم ، شيء لا يتأثر بباطنه أبداً مهما تأثر ظاهره ، لأن الأصنام جوفاء . . . ليس لها باطن ، أما ظاهرها فكل شيء ، وهو شيء خطير دائماً حقاً . . .

ولكن الدماء الشابة الدافقة في العروق الفتية لا متسع لديها من
الوقت للتمسح بالأصنام . . . وهي على الأكثر تنحاشاها عن رهبة ،
وتغض عنها عينيها ؛ حتى تستطيع أن تتجاهلها . . . كي تعيش ،
وتنطلق . . .

الهيكـل المستباح

« رتبة » بنت بيثها البرجوازية ، بنت الأصول « الأصولية » تزوجت وهى فى الرابعة عشرة قبل أن تفتح تماماً ، فاختزلت طفولتها اختزالاً . وانتزعت من المدرسة إلى « بيت العدل » . . . إلى أحضان عريس محترم ، تمثل فيه كل السلطات ، والمزايا ، والمعاني . وبحسب الأصول تشكلت بشكله ، ونطبت بطبعه ، وطبع حماها . . . فغدت سادنة الصنم وكاهنته بكل إخلاص واستغراق . . . !

ومن هنا سرت إليها عدوى الصنمية ، صارت صنما بمعاشرتها المخلصة للصنم ، لم تلمس باطنه لأنه بغير باطن ؛ ولم يتحرك له باطنها ووجدانها الدفين لأنه لم يلمسها ، ولم يشعر لها بوجود ، قياساً على خواته . . . عرف فيها الزوجة ، وست البيت . أما المرأة فهيهات !

وتصنمت «رتيبة» كأنما طلبت ذاتيتها الحية بالطين ، ثم جف الطين
وتيسس ونحجر كالفخار ، فغطى كيائها ، وغدت بعظورها صنماً مثل
زوجها ، بيد أنها صنم غير أجوف ، صنم مزيف ، لأن بداخله ذاتا
سجيناً . مكومة معصوبة العينين . مخدرة لا تتحرك ولا تنطلق . . .
كالبدرة النائمة داخل غلافها اليابس . . . !

وبهذه القشرة المستعارة عاشت «رتيبة» مع «سى» عزالدين ، وقد
خفى - حتى عليها هي - أن تحت تلك القشرة طاقة حية من الوجدان ،
معطلة عن الحركة والنشاط سنين عدداً . . .

حياة سطحية لا يتجاوز الانفعال بها أو فيها أديم البشرة ، فالضحك
فيها ليس انبعاثاً من القلب ، بل دغدغة في باطن القدم أو الجنب ،
والحزن فيها وخزة إبرة أو عضّة غملة ، وغاية الإحساس فيها بالزوج أن
تعرف «ما» هو؟ إنه السيد والصاحب والعشير ، أما «من» هو . . .
فذلك ليس في الحساب !

ومن سطح حيويتها أنجبت بنتها ، وأخلدت إلى قرينها ، ورضيت عما
أتاحتها لها حياتها من قرة عين ، واحترام ، وسمت . . .

ومن سطح حيويتها حنت على بنتها ، لا لأنها «هدية»
«حورية» ، بل لأنها ذريتها . . . إليها فخرهما حين الفخار ، وعارهما
حين الشنار . . .

قشرة مستعارة تزدد كل يوم صلابة وقوة ، مثل لحاء الدوحة يزداد
على المدى تليفاً وبأساً . . .

ولكن اللحاء مهما تليف واشتد لا يمنع الجذع الذى بداخله أن ينمو . وكذلك القشرة المستعارة : لا تتم على الكائن الحى الذى بداخلها . ولكن الكائن ينمو كما ينمو جنين الكتكوت داخل البيضة . ويظل فى نموه المتصل إلى أوانه الموقوت وعندئذ إما أن تتحطم القشرة ليتنفس أو يظل محبوساً بداخلها فيختنق ، بعد صراع قد يطول أو يقصر

والمرأة . . امرأة ذلك الجيل على الخصوص . ما أكثر ما كانت تموت قبل أن تكتشف أن تحت قشرتها المستعارة - المستعارة من التربية والمجتمع - قلباً نابضاً وحياة دافقة وشحنة عاطفية !

وكانت رتبة امرأة مثل هؤلاء من الممكن أن تنمو ذاتيتها تحت القشرة المستعارة وهى لا تدري ، حتى تبلغ غايتها من النماء . فثم أن تنطلق . وتحطم قشرتها فإما أن تخنق القشرة حيويتها فتمرض بداء جسمى هو الترجمة البدنية للصراع الوجدانى المستور أو بداء عصبي - يتأولونه بمس من الجان وما الجان إلا الترجمة المشخصة لقوى الوجدان المعطلة والشحنة العاطفية المكبوتة أو تتزلزل أساس العقل كما تنفجر البراكين فتحطم القواعد التى ظنت راسية رسو الجبال وإما أن تتحطم القشرة فإذا من صنعوها وفرضوها عليها - من أولياء العرض وحراس العرف - ينتقمون : إما بسلب الحياة . أو سلب الاعتبار



رتبة اليوم قد جاوزت الثلاثين بعامين ، وإذا هي تحس في نفسها أمراً لم تقض إليه إلا أخيراً . ولكن لاشك أنه طراً عليها منذ أمد وهي لا تدري ! أصبحت لا تغض السمع عن أحاديث النسوة الدواقي يتوافدن على الدار . مثل زوجة البستاني والخبازة وبنات العاكهة . وإن هن مع دادة الجارية لحديث ينوعه السمع العف ولا مرأه ، فهن يخضن دائماً في الذي يكون بين الرجال والنساء من صلات خوضاً لا يرتفع كثيراً عما يكون بين الحيوان من آصرة صرخة في عنفها وسفورها ! . . . وإن هن في الحديث عن هذه الأمور لتنددن خافياً أو ظاهراً ولكنه كما يلكن اللقمة المستسغة في جوانب الفم جميعاً .

وما كانت قبل اليوم إلا أن تأنف من هذا الحديث ، وترور عنه بالقلب قبل السمع ، أما اليوم فهي تحمر وتضطرب ، ويشند بها الحق ، وتشرهن . . . ولا تكتفى بالخروج كما كانت تفعل من قبل . ثم يزداد حنقها على نفسها وهي تضبط نفسها متلبسة بتصور هذا الذي سمعت ، ويتنوع ألوانه في مخيلتها ، فتقنع نفسها أنها تستشعر التقزز والازدراء لندرك الذي يعشن فيه . وإنما مع هذا لترهف أذنها لتلتقط من الحديث ندفاً من وراء الجدار الذي يفصل المطبخ عن الحجرة التي تتلبث بها عمداً . . . وقد ترى يدها ترتجف وهي تعالج شيئاً من أغراض البيت ارتجافة الغضب فيما تريد أن تعتقد . وارتجافة الاضطراب الذي يصل إلى أمعائها ، أو - من يدري - لعله منبعث من أمعائها . . . !

- أف هن ! أي حياة هذه التي يحيينها ؟ حقاً إن الإسفاف في التربية

والمقام والخلق - يعنى كذلك الإسفاف فى الاهتمامات ، والانشغال
بالقاذورات . . . !

قاذورات ؟

نعم . وإنما لتحمد الله لأن «سى» عز الدين فاء إلى الهوادة ، شأن
كل من أدركه الشيع والنسيم ، فلا يأكل إلا لأن للطعام موعداً موقوتاً
يستغرب التخلف عنه . . . فلا بطنة ولا نهم !
وتتنفس بارتياح . . .

وإنها مع هذا لتثور بابتها الثانية «حورية» لأنها تراها مصرة على
تفصيل ثياب لا تليق بسنها ، تثور بها لا ثورة الأم «الأصولية» ، ولا لأن
الثورة على التبرج شئ مفروض فى الأم ، بل تثور عليها ثورة جدية تابعة
من نفسها ، لا من «لائحة الأصول» ، ثورة فيها غيظ ولدد
وخصومة . . .

وتحمنق «حورية» قليلاً ، وتحس فى أعماقها زهواً غامضاً بفطرة
الأنثى ، وأما «رتيبة» فيحتقن وجهها ولا تهدأ ثورتها حتى بعد أن يفر
الموضوع ، لأن الثورة لا علاقة لها فى الحقيقة بالموضوع أو المناسبة ، وإنما
هى عداوة أصلية قائمة تتمحل الأسباب كى تظل برأسها وتعلن عن
بأسها . . . !

إنها المراهقة الثانية ، بعد الثلاثين . . . تريد أن تأخذ مداها الذى
حرمته فى المرة الأولى ، ولكن القشرة المستعارة هناك !

وهذه الفتاة ، صغرى البنتين يهد صدرها ، ويوشك أن يفتح

برعمها فتكون نهاية كل فرصة أمام تلك الأم التي غبت في انطلاقة صباها .

إذن يجب أن يقف نمو « حورية » ! إذن يجب أن تبقى طفلة ! إذن يجب ألا تتمتع أو تصبو للذى فات أمها حين سرقوا منها يفاعتها اختلا . ولكن هل تفهم « رتيبة » هذا ؟

كلا . . . بيد أنها تحسه : كالمرض يحس الداء وإن لم يعرف كنهه ! وإن قشرتها المستعارة لتأبى عليها أن تعترف بالحقيقة أمام نفسها ، فتصور لها حسدها للنسوة السوقيات في صورة الأزدراء والاستنكار ، وتصور لها حسدها لابنتها الناهد في عصر متحرر بصورة الاستياء من بنات هذا الزمن الأغبر . . . !

الزندق

طلع الصبح ذات يوم فإذا « الست رتبة » تأخذ سمتها إلى المحطة ،
لتسافر إلى « كفر الشيخ » ، وهناك تجد أخاها « شوق » في انتظارها في
« دوكار » الدائرة ، دائرة « العسال بك » التي يعمل وكيلاً فيها منذ توفي
والده وكان وكيلاً للعسال باشا الكبير من قبل ، فقد وصلت برفقة منه أن
والدته مريضة . . . ولما كان هناك سوء تفاهم مزمع بين « نجمة » زوجة شوق
وبين حماها ، حتى إن أم شوق صارت تقيم في البيت الكبير القديم
بمفردها مع خادمة عجوز ، ويقوم شوق مع زوجته في بيت حديث به
بانيو ونور كهربى في بندر كفر الشيخ نفسه . . . فمن الذى يمكن أن يمرض
المسكينة العجوز ؟ لقد خسرت ابنها الوحيد بالزواج ، ولكن لم تزل لها -
بحمد الله - ابنتها « الوحيدة » رتبة ، فما كان الزواج يمنع أبداً بتناً عن

أمها . . . !

واستقبلها شوق على المحطة بوجه مضطرب يجمع بين الألم والحيرة والتساؤل لشعوره بالتقصير في حق أمه . . . وأنه متهم - بحق - بالضعف الشديد أمام امرأته . . . بالرغم من هذا الطربوش الغامق الضيق القمة المكبوس في رأسه إلى أذنيه ، وبالرغم من هذا الشارب المفتول مع جزء من شعرات الصدغين ليزيد انتفاشاً وصولاً ؛ فليس من المنتظر أن تنطلي هذه التهويلات على أخته التي يعرف لها طول عمره نظرتها الثابتة وتمسكها بالجد . . .

وفي تحاذل عزم عليها أن تتغذى في بيته أولاً . . . ثم يذهبان إلى الضيعة . وفي فتور أيضاً أجابته رتيبة :

- ليس هذا وقته ، أتراني جئت وتركت بيتي وحالي كله لأتغذى في ضيافتك ؟ . . .

وبنع ريقه ؛ لأنه كان يخشى أن تقول !

- عند نجمة . . .

ولكنها لم تقلها وإن كانت لهجتها واضحة في التلميح إلى ذلك المغزى ! وقال بلسان ملتو من الارتباك . . .

- الحقيقة أني كنت أريد أن أنقلها إلى بيتي هنا . . . لتكون العناية أكثر والأدوية و . . . كل شيء . . .

فقالت بهجة حاسمة :

كان الأولى أن تنقلها عندي . . . مصر أم الدنيا . . . هناك

الطب . . .

فأسرع يقول بلهفة :

- من جهة الطب ، لا تقلق بالك . . . زكى بك لا يألو
جهداً . . . وهو الذى لا يترك عيادتها مرتين بل أربع مرات أحياناً . . .
الله يطول عمره . . .

فقطبت حاجيها ونظرت نحوه مشيخة عن نافذة الدوكان التى كانت
تطل منها طول الوقت على مناظر الحقول تحاشياً منها للنظر إليه :

- زكى بك ؟

- زكى بك . . . الدكتور زكى العسال . . . عاد من أوروبا . . .
فحملت فى وجهه وهى تقول كمن عرفت شخصاً بعد توهم
وجهد :

- الزندىق ؟

- بعينه ! دكتور عظيم ! آخر علم ! . . . أصر أن يعالجها بنفسه ،
الأصل الطبيب لا يجيب مطلقاً ، أثمرت فيه التربية والعشرة ، وهو الذى
قرر أن نقلها خطر . . .

ولم تستطع رتبة أن تمنع عن شفيتها ابتسامة حاملة وهى تتذكر هذا
الفتى الطويل المستدير الوجه المخدب الأنف اللامع العينين فى خبث وهو
يعايب الفقيه الأعمى معلم الكتاب معاينة قاسية ، والرجل لا يملك إلا
انصمت إزاء ابن سيد الضيعة المطلق . . . وازدادت الابتسامة عرضاً فى
وجهها وهى تذكر يوماً بالذات . . . اجتمع فيه الناس كلهم حول الشيخ

«زيان» يتلَوْن من الضحك ، والأعمى يكاد على حد تعبير زكى يفتح عينيه من فرط الغيظ . . .

فإن هذا الملعون أتى بعضا غمسها في شيء من روث البهائم الذى يكثر في طرقات الضيعة ، وأقبل على الشيخ زيان بصوت مرتعش من البكاء - فما أبرعه من ممثل هذا العفريت !

- أرايت يا سيدنا ما فعل عريفك بى ؟ هل يرضيك هذا ؟ أترى ماذا يصنع والذى به لو أخبرته ؟

- ماذا حدث يا ولدى ؟ لعنة الله على هذا المنكود !

- أمسك يا سيدنا بيدك لتعرف ضراوة العصا التى لسع بها ظهري وكاد يكسر عمودى الفقرى . . . أمسكها بربك لتحكم بنفسك . . . !
وقرب الملعون العصا من الفقيه الضرير ، فقبض عليها وهو يتعوذ ويحوقل ويدعو على العفريت بالويل والثبور وعظائم الأمور . . . وفي الحال جذب زكى العصا وهى فى قبضة الشيخ ، فإذا بالنجاسة قد غمرت يده . . . !

وأدرك الكفيف الملعوب ، فصرخ سائلاً لا عناء . وتجمع الناس على صوته . وما رأوا المنظر حتى ضجوا بالضحك وصراخ الرجل يتعالى يسب آباءهم وأجدادهم ، وهو يجرى على غير هدى متهدداً بعذاب جهنم هذا «الزنديق» . . .

ومن يومها واسم الزنديق ألصق به من اسمه الأصيل . . .
هل حقاً كبر «الزنديق» وصار طيباً يشار إليه بالبنان ؟ ما أسرع مرور

الأيام ! إنها لا تكاد تصدق أن تراه تغير أو كبر أو صار في هيئة الرجال
ذا جد وسمت . لا أخا عبث وبجانة واستهانة بكل محترم مصون . . . !
حتى أبوه لم يكن ينجو من مجونه واستخفافه . . . كان يسميه « خيال
المائة » ، ويقسم أن زيجته و « هلضته » في الفلاحين ليست إلا تمثيلا
خائبا ، وأنه يرتعد أمام زوجته التركية - وهي امرأة أخرى غير أم زكى
تزوجها بعد موتها . . .

- بالكلم جلفدان هانم أفندي بأى اسم تدعوسيدكم أبويا خيال باشا
المائة ؟ ، غلب حماركم ؟ أجدع اسم خسارة في جتته . . . !
« أبو زعبوط » ! . . . يعنى بالعربى أنا ابن أبو زعبوط . . .
ثم يقبض على أنف أى غلام من غلمان الفلاحين يكون بين حلقهم
التي تتبعه دائما في مغامراته الشائقة ، ويلوى أنف المسكين بين إصبعيه
وقد رفع حاجبيه ، وهو يصيح !

- قولوا معايا . . . يا أبو زعبوط . . . شىء لله !

- شىء لله يا أبو زعبوط . . .

- أملك هبله وأبوك معبوط . . .

- أملك هبله وأبوك معبوط . . .

- هيه . . . !

ويصيح « الكورس » الربى كله !

- هيه . . .

ثم يجرى ويتبعونه إلى مغامرة من مغامرات شيطنته التي لا تنتهى . . .

... وتهدت رتيبة وارعوت عن هذه الذكريات الباسمة التي
استرسلت فيها وهي تطل من النافذة ، واستاءت من نفسها لذلك
الاسترسال غير المناسب وأنها طريح الفراش ...
حقاً لم يكن ينسى هذا الزنديق زندقته واستخفافه بكل الأقدار
والأخضار والشخصيات إلا حين يدخل عند أمها ...

- يا خسارتك يا خاله «زهرة» في خلف الندامة ، ابنك وبتك
هذين ! أما تشاورين عقلك نعطيها جفندان هائم أفدى ، وأقعد أنا
معك هنا ؟ أقله أجيب لك شكل الناحية ثلاثين مرة في النهار !
وتضحك أمها وتقرصه في أذنه بنطف ، فيرتمى على الأرض يتصنع
الموت ويصيح بصوت مضحك !

- عليك العوض يا خيال باشا المائة يا أبوزعبوط في حيلتك من ظهر
الدنيا ... قتلته خاله زهرة ... أديريني على القبة ... !
وفجأة يستوى جالساً على الأرض كالعفريت ويقول بكل جد وفزع
وهو يشير بسبابته مخدراً ...

- بس على شرط ... أمانة في رقبتك يا خالة زهرة ... اوعى
الشيخ «زيان» يبجي ناحيتي ... أحسن ترد في الروح على طول وأقوم
أعضه وتبقى مش نظيفة !
وتجري أمها خلفه ، ويسرع هو كالسهم مارقاً إلى الشارع وهو يصرخ
كالشيطان :

- يا أولاد حارتنا ... يا أولاد ... تعالوا نصطاد وطاويط في مخزن

التين في دوار أبو زعبوط . . . !

هل يمكن أن يكون هذا المهذار قد صار رجلاً وطبيباً ومؤمناً مسئولاً
عن حياة الناس ؟

إنها تصدق على كل حال أنه يحب أمها . ويريد إنقاذها ، ولكن
هل يعرف ؟ هل يقدر ؟

إنه لا يصح ابداً للجد ، فسيرته وحدها كافية لجذبها - وهي
الجادة المكروبة لمرض أمها وخيبة أخيها ورعاوته - إلى جوه الماجن السادر
الذى لا يعرف له جد من هزل . . .

وقطعت عليها خواطرها رجفة العربة وهي تقف فجأة أمام ذلك
البيت العتيق المبني من الطوب الأحمر الذي ولدت فيه ونشأت ، والذي
تقيم فيه الآن أمها بمفردها في الجهة الخلفية من مساكن الضيعة بالقرب
من الجرن . وليس أمامه إلا الحقول على مدى البصر . . .

الكونسولتو

قفزت رتية من «الدوکار» واندفعت حتى كادت تنكفي بعثة الباب الخارجى العالية التى طالما تعثر فيها الداخلون والخارجون ولم يفكر أحد فى إزالتها ؛ لأنها كانت تكثت امتطاء الركائب والتزول عنها ؛ وردتها هذه العثرة عن غلوائها قليلاً . فارتقت الدرج بعد أن اجتازت القناء الداخلى فى لطفة أقل مما كانت عليه ، وأخوها من خلفها يجتهد أن يلاحقها . فلم يدركها إلا عند قمة الدرج ؛ ليشد على ذراعها بإصبعيه شداً ذا مغزى :

- تماسكى ؛ فإنها شديدة التنبه للبكاء . تنظر إلى من يبكى بعينين قلقتين . . . إنها تنتظرك . طالما هزت باسمك . . .

فوضعت رتية يدها على فمها ، ونفرت الدم إلى وجهها ، وطفرت الدمع

من عينيها ، وحسبت شهقة ، وهمت أن تندفع إلى حجرة أمها في أقصى
اليمين من الدهليز لولا أنه استوقفها في حزم :
- امكثي حتى تتألكى نفسك قليلاً . . . يجب ألا تظهرى لها
جزعاً ، حتى لا يأخذها الذعر على نفسها . إن طمأنينتها بيدك أنت ،
تذكرى هذا . . .

فقالت في هستيرية :

- فهمت . . . لن أظهر شيئاً . . .

وفي الوقت عينه انهمرت دموعها على خديها . . .

- وهذه الدموع ؟ . . . !

فأسرعت تمسحها كمن تحكي شيئاً مسروقاً وقالت :

- هذه لا شيء ، هاأذا أضحك . . . انظر . . .

وابتسمت ابتسامة مرتعشة على شفتين تحتلجان بالنحيب . . . وكأنما

أعيابها هذا المجهود المتناقض ، فانفجرت باكية تعض شفتها حتى تكتم
شهقاتها وزفراتها ، وانقادت ليديه وهويدهما إلى أقرب حجرة بها أريكة
إستامبولية وبضعة مقاعد . . . وتناول قلة ماء حمراء من فوق إفريز
النافذة ، فتجرعت الماء ونضحت وجهها بشيء منه ، وجففته بمنديل
قدمه إليها أخوها ، فهدأت نثرًا . واتجهت إلى حجرة المريضة .

وأجفلت وهي على عتبة بابها عندما وقع بصرها على ذلك الشبح
الهازيل الذي يغطي رأسه كيس من الجلد رمادي اللون . به ثلج ،
وللأنفاس ارتفاع و انخفاض ملموسان جداً في لحافها الأحمر المنقوش .

وقبل أن تصل إلى الفراش أوشكت أن تصطدم هى وعجوز ريفية
تقدمت نحوها وهى غافرة عنها كى تسلم عليها ، فقبلت يدها وهى تطمئنئها
وتسرى عنها بكلمات ساذجة من فمها الخالى من الأسنان .

ما عندها إلا لسلامة وحياة سيدى إبراهيم . . . شىء لله
يا أبو خليل . . . !

وكأنما كانت تكلمها من وراء ضباب كثيف . فما تدرى بماذا
أجابها ؟ أو هل أجابها إطلاقاً . . . ؟ وثناقلت خطواتها كأنما بها وقر من
الأغلال حينما اقتربت من فراش أمها كمن تشفق أن تتلاشى آخر مسافة
تفصلها عن الواقع الذى تفرق من بقيته . . .

وخرج صوتها من فمها كالخشرفة وهى تنادى المريضة :
- أمه . أمه . !

وفتحت المريضة عينها بعد لآى فتحة جد بسيرة ، ونظرت نظرة
هائمة من بين جفניה الذابلين ، وكأنها استجمعت كل قوتها فى تلك
النظرة ، ونفدت طاقتها ، فأغمضت عينها ثانية ، فأحست رتيبة أن أمها
أطلت عليها من قلعة منيعة . ثم أغلقت كوتها واعتصمت منها بعالمها
المقفى . . . !

وتقلصت يدها على ملأء السرير ، ورفعت عينين حائرتين إلى
العجوز الخادمة وأسألتها بصوت خافت مستكين :
- ألا تعرف أحداً ؟

وقبل أن تسمع جواب العجوز ارتفعت فى رجة الدار السفلى همهمة

عالية ، وسمعت صوت أخيها يرحب بقادمين . . . فقالت العجوز ترد على التساؤل الذى بدا فى وجهها :

- سيدنا البك الدكتور . . . ومعه زملاء له ، أحضرهم - أطال الله عمره - للتشاور . . . والله يقدم الخبر من عنده . . .

ولم يلبث أخوها أن دخل فأخرجها هى والحادمة ؛ ليتفرغ الأطباء لاستشاراتهم وفحوصهم ؛ وانضم إليها أخوها بعد دقيقة ، والخيرة ظاهرة فى نظراته ممزوجة بشيء من البلاهة والقلق والانتحار . . . !

هو حائر طبعاً لا يدري ماذا يجب أن يفعل ؟ وكيف يجب أن يبدو أمام أخته رتيبة . . . حتى لا تظن به الظنون فى رعايته لأُمها واهتمامه بها وحزنه لمرضها . . . إلى أى حد يجب أن يبدو عليه الحزن والهم ؛ ليظفر من هذه الأخت بوصف الابن البار ؟

هذه مسألة خطيرة بالنسبة له كعميد أسرة غير مطبوع على العادة والسيادة . وإنما هى ظروف كالظروف التى ألبسته الطربوش الغائص إلى أذنيه ! ويجب طبعاً على الرجل الحصيف أن يلبس . لكل حالة لبوسها ، وهذه أول مرة يجد نفسه فى حالة مرض أم . ، ومرض الموت فى الغالب . . . وليس أمامه «مشق» يحتديه ، كمشق الخط فى المدرسة الأولية ! إنه رجل تقليد ، وليس ابن طبعه أو فطرته ، وهذا هو سر حيرته . . . وهو أيضاً سر تعلقه - بالنظرات - لأخته بنت البندر . والسيدة القاهرية . إنها تتمتع عليه بنوع من السيادة والرق . ورضوانها عنه وعن بره بأمه ، وعواطفه وتصرفاته فى هذا الموقف الحساس - شيء

له أهميته القصوى في نظره .

وأما الافتخار فلا غرابة فيه : فمن في الريف يملك أن يعقد في بيته «كونسولتو» أو مجلساً استشارياً من جملة أطباء لفحص أمه المريضة ؟ هذا لون من «العز» ما في ذلك شك !

وأما البلاهة أو قلة الحيلة فهذه صفة أصلية ناجمة عن خواء الطبع وضالة الإدراك وسطحية الإحساس . . .

وليس معنى هذا أنه لم يكن يحب أمه . مستحيل ! إنه يحبها جداً : أى بأقصى ما يستطيع تكوينه السطحي . وما كان أحد ليطالبه بأكثر من ذلك لو أنه ترك الموضوع عند هذا الحد ، ولكن الأبله لم يترك المسألة في حدها الطبيعي ، وأبى له «اجتهاده» إلا أن يبحث عن أحسن ما يجب من الشعور كي يتظاهر به ، أو يوجيه إلى نفسه : لأن المسألة مسألة «أصول» . وهو لا يصح أن يكون متخلفاً عن زيد أو عمرو في أى شيء . . . حتى في خصوصية تامة كحب الأم !

لذا دخل عليها شوق بعينين زائغتين بالحيرة والتعلق لامعتين بالافتخار ، وتطلع إليها في استطلاع . ولما وجدها جالسة على طرف الأريكة وبدها على خدها لا تنظر إليه شرع على الفور يسترعى نظرها وسمعها إليه . . . فضرب كفاً بكف ، وتناوح زر طربوشه وهتف بصوت لا يتناسب في نخافته وجسمه وشاربه الكث :

— أين كان هذا كله مجبوء لك يا أماه ! أين ؟ أين ؟ . . .

فرفعت إليه وجهها وفكها معتمد على قبضة يدها ، وكوعها فوق
فخذها ، ثم زفرت في صمت ، وأسبلت جفניה مشيخة عنه كأنما سمعت
ضجة في الشارع ، ففتحت النافذة وأطلت منها لحظة واحدة ، ثم أغلقها
وعادت إلى خاص شأنها في الداخل . . . !

- فضله واسع يا رتيبة يا أختي ! هو الكريم قادر بكرمه وفضله يرفع
عنها هذا البلاء المحيق !

ورفع سبابته وجعل يطوحها في الهواء أمام وجهه وهو يقسم :
- والله ! والله ! والله ! ثلاثة بالله العظيم ما أبقيت في وسعي شيئاً لم
أفعله من أجنها . . .

وسكت سكوتاً ذا مغزى كأنه يتحدثها أن تنكر الحجة الساطعة والآية
الناصعة على صدق دعواه . ألا وهو الكونسولتو الذي يدور . لا يفصله
عنها إلا جدار الحجرة . . .

وهمت أن تقول شيئاً أي شيء ، لأنها شعرت أن كلامه يستدعي
رداً ، حتى لا يشعر أنه في الحجرة وحده . . . وإذا بصوت أجش رنان
ارتجفت لسماعه كأنها صغرت عشرين سنة :

- يا أبا الأشواق ! ياسي شوقي !
وهرع « أبو الأشواق » غير مبال « بالمشغلات » التي يكاد ينوء بها : من
فردق شاربه الكث ، وطربوشه الغامق ، وسلسلة الساعة الغليظة . . .
شيء عجيب ! كأن هذا الصوت عفريت خرج من فقمه بعد

حبس دام سنوات وسنوات ، فإذا به هو هو . لم يغيره الزمن ،
ولا الحبس ولا السن . . . ولا أى شيء . . . حتى لقد توقعت أن ترى
صاحبه ينظ في وسط الحجرة بشيئته التي تبدو أنها لا تبالى شيئاً حتى
الزمن ! . . .

يا بنت ستي

وانتقل لفظ الكلام إلى الردهة ثم إلى السلم ، وسمع محرك السيارة وهو يدور أمام الباب وسكنت الأصوات ، فأدركت رغبة أن الأطباء انصرفوا ، فدخلت الحجرة على والدتها لتجدها على حالها في غيبوبة . وتطلعت كالمسائلة نحو « حالة بهانة » ففطنت العجوز بفطرتها إلى ما يخالج الابنة من قلق ولطفة فقالت :

- ما عندها إلا الخير وحياة سيدى إبراهيم . . . سيشفها الله ببركة المصطفى وأهل بيته . . . لقد ذهب سيدى مع الأطباء ليأتى بالدواء من البندر . . . بيده الشفاء . . . هو المطلع وهو الشافى . . . !

ولم نجد رغبة ما تصنعه إلا أن تجلس على طرف الفراش ، وتجلس يد أمها . فلا تحس فيها استجابة ، وتمسح على وجهها فتجده يكاد يلسعها

بجوارته . . . وتسلسل خالة بهانة إلى المطبخ لتعود وعلى يدها خوان صغير من النحاس الأصفر فوقه أدوات القهوة ، فوضعت على منضدة رخامية بيضاوية الشكل كانت تزدحم بقوارير العقاقير ، وبراد به بقية من صبغة الحماوى ، وانصرفت إلى صنع القهوة ، وهى لا تكف عن الكلام فى أحوال المريضة ، ومحبة الناس لها ، ورعاية الدكتور زكى وعطفه المتصل . - . . . ولولا تشددى ألا يقوم بخدمتها سوى لأحضر الست «مهجة» ، ولتركت العيادة وتفرغت لتمريضها بنفسها ، ولكنى وحياة سنى ومقامها عندى وغلاوتها أبيت وأقسمت . . . وهل كان هذا يصح ؟ وسألها رتيبة فى غير أكرات لمجرد قطع الوقت الذى بدا ثقبلاً جداً وهى تنتظر ما يتمخض عنه حضور شقيقها بالدواء وقرار الأطباء بعد الكونسلتو :

- مهجة ؟ من مهجة ؟

- ألا تعرفين الست مهجة ؟ آه ! صحيح ، أنت لم تريها . . .

وضحكت ضحكة خشنة يبدو أنها كانت تريد ناعمة ، ولكن تقدم خاله بهانة فى السن جعل ضحكها تبدو حادة ذات أسنان تهم أن تنهش بمعانيها وتوريتها :

- . . . الحكيمة . . . الدكتورة . . . مساعدة سيدى زكى بك

ويده اليمنى فى العيادة والمستشفى ، فى البيت والغيط !

وحدقت رتيبة فى خاله بهانة كأنها تريد أن تستوضحها . والحقيقة أنها كانت شبه نائمة تحت تأثير دوامة الحوادث . ووطأة الموقف ، فنهبتها هذه

الضحكة ثم هذه العبارة ، فحملت كما يحمل النائم نبيه من نعاسه أحد الناس بهزة مفاجئة . . .

— البيت والغيط ؟ أى غيط ؟

فتصنعت العجوز الوقار ، وجمعت شاش طرحتها على رأسها وهى تقول :

— أستغفر الله العظيم . . . كلام الناس كثير . . . وسبحان العالم . . . والناس لها الظاهر . وبعض الظن إثم . . .

ورمقت سيدتها بنظرة خاطفة لتستطلع وقع كلامها على وجهها . فوجدتها بادية الاهتمام بما تقول ، واطمأنت إلى قوة تشويقها ، فتهدت وسكت برهة بسيرة ثم استطردت :

— كلام الناس كثير . . . كانت حكيمة معه فى الحميات . . . ثم استقال لما أرادوا أن ينقلوه من البلد ، واستقالت معه الست مهجة . . . وفتح ربنا عليها . . . الحقن تعطيها ست مهجة ، البقشيش الحلول ست مهجة . الكلمة فى كل شىء فى عيادته ومستشفاه للست مهجة ، هى التى تقاoul المرضى . وهى التى تحاسب الفلاحين مع سيدى شوق . . . العقبى للحبايب ! الذهب من هنا هنا . وعلى قلبها ملايين !

وأشارت إشارة معبرة من ذراعيها من الكوع إلى المعصم .

— . . . وتصديق بالله « كثير طلبوها . أصلها . . . » ومالت فوق رتيبة كأنما تسر إليها سرّاً خطيراً .

— سمراء صحيح قحاوية ، لكن تقاطيعها حلوة . وسنها

صاحك ، وشطارة الدنيا فيها . . . وجسمها مفصل . . . واللبس يعدل
المائل . . . على رأى المثل . . . ولم تقبل الزواج من أحد منهم . . .
ولم تستطع أن تقرأ على وجه رتيبة تعليقاً ، فسكتت قليلاً ، ثم
استأنفت بقية الرواية :

- . . . ابن شيخ الحفراء حب يأخذها على أم العيال ، ويطلق أم
العيال . . . حتى هذا لم تقبله . . . والست مهجة هذه هى التى أراد سى
زكى بك أن تعرض والدتك . من شدة محبته لها . لكن خادمته لم
تقبل . . . يبقى عيب !

وأوشكت القهوة أن تغور ، وإذا خاله بهانة تتذكر فجأة شيئاً ما
فتدق صدرها الأسلح بيدها المعروفة كأنما كارثة كبيرة قد وقعت وهى
لا تدري . وصاحت :

- ماذا جرى لعقلك يابنت يا بهانة ! بسم الله الرحمن الرحيم !
قطيعة تقطع ست مهجة وسنينها الغبراء !
- خيراً يا خاله بهانة ؟

- خير يا ستى خير ! أنسأى الشيطان أن آتيك بلقمة ، وأنت قادمة
من سفر طويل يابنت ستى !

قبل أن تحاول رتيبة استبقاءها كانت قد وثبت وطاروت إلى المطبخ
وهى تصرصر بصوتها الحاد الذى يكمل صورتها ومشيتها المنقضة وأنفها
المحدودب كمنقار الحدأة . . .

- أصل منخ خالتك بهانة خرب من القهر . والكبر عبر يابنت ستى !

ولم تمر لحظات حتى عادت تنقض في مشيتها إلى الأمام ، كأنما تنحدر من جبل ، ورأسها يتقدمها بمبقاره وعينيه وضيافير الصوف المعلقة بشعرها بمثابة شعر مستعار ، علقت به خرزات خضراء ، وقطعاً مستديرة من الذهب القشرة ، وعلى يدها خوان كبير من الصاج المستدير مطلى باللون الأحمر ، فوفه أرغفة رقيقة من خبز البيوت الريفية ، وقشدة وزبد ، وبيض محمر . . .

- لم يتسع لي الوقت كي أطهو شيئاً يليق بمقامك يا بنت سنى .
أدرك الكبر خائنك بهانة ، ولم يترك لي مرض سنى عقلاً ولا بالاً . . .
شفاهها المولى !

ونظرت رتيبة إلى المائدة الريفية في شيء من التردد ، ثم ارتسمت على وجهها رغبة طفرت من الأعماق فجأة ، فرفعت عينيها إلى بهانة وقالت :

- ومن أين أجد الشهية لكل هذا ياخاله بهانة ؟
- وهل تراك تقوين على الصيام عن الطعام ؟ قسماً بحياتك وحياة سنى ! لو كان الصيام يشفيها لصمنا إلى يوم القيامة العصر . . . ولكن لن يفيدنا ، ونحن بحاجة إلى الزاد لنستطيع خدمتها . . . وقالك الله السوء وأبقاك يا بنت سنى ! كلى . . . اغصبي نفسك ، فما تعرف البطن الأحران . . . !

- أليس عندك شيء من الجبن القديم . . . وفحل بصل ؟

- ياقلب خالتك بهانة من جوه ! نفسك حليانة ! عندي يا بنت سنى !

البرغوث

وأقبلت بهانة بطبق الجبن الضافي، جبن الغنم، وقد عتق في دهنه أعواماً
حتى غدا المش في صفرة الكهرمان الناضج، غليظ القوام، يتحلب له
الريق الرقيق العريق. ويجواره فحلان من بصل، وأعواد من السريس في
خضرة يانعة، عليها قطرات الماء من بقايا الغسل كمنار اللؤلؤ، وقارورة
من زيت السرج الفيروزي النون وليمونات... أقبلت بهانة بها في زهو
من أتي بالرغبة للحببية، على اقتدار بالتلية، وتقدير للذوق الذي
انتقى، فأحسن الانتقاء والمشهى...

- كلى هنيئاً يا بنت ستي...

- بل كلى معي، لتواتيني الشهية.

- كريمة بنت كرام... بسم الله الرحمن الرحيم...

وشغلها الأكل لحظات لا يسمع فيها إلا صليل الأساور الفضية في ذراعى بهانة وهى تمزق الأرغفة في لقم كبيرة ، وتطويها بالجين المعتق في فيها الواسع ، أو تمسح الدمع الذى أساله البصل بحرقته من مقلتيها الحاييتين .

وزوت رتيبة ما ين حاجيها فجأة كمن أقلقها خاطر :

- ما بالها لا تتحرك ولا تن يا خالة بهانة ؟

- إنها الحقنة التى حقنها بها سيدى زكى بك . . . سكنت ألمها فنامت نوم العافية على بركة الله . . . ونهانا أن نقلقها حتى تنبه ، وسيعود ابن سيدى . - أطال الله عمره وعمره - بالدواء . . . فكلى يا حبة العين ولا تقلقى !

وعادت رتيبة إلى الطعام ، ولكنها لم تصب منه بعدها إلا لقيات متباعدة على وناء . . . كانت تمضغها في ثناقل . فإن وطأة الجوع كانت قد ارتفعت عنها ، حين ظنت أن سكون أمها أقلقها واسترعى اهتمامها . ولم يستطع الطعام بعدها أن يشغلها عن الحالة المسيطرة على جو البيت ، وجونفسها المنغصة بمرض أمها الثقيل الغامض الذى فجأها .

ونفضت عن يديها الفتات ، ثم نمت في آلية أشبه بالمضض :

- الحمد لله . . .

- زيدى يا بنت سنى . لم تأكل شيئاً . . . !

- نعمده ونشكر فضله . أكلت .

ونفضت في شيء من العناية استشعرته عضلاتها ومفاصلها من وطأة

الحم الذى أنك أعصابها فسحة ذلك النهار .

وذهبت لتغسل يديها ، فوثبت بهانة واستبقته ريثما تحضر لها الإبريق والطشت . وسرعان ما رجعت تحملها فى خفة ترجع إلى المراتة الطويلة ، وعلى قبة مصفاة الطست الأبيض صابونة من النوع النابلسى الذى لا تسبخ أمها سواء بحال من الأحوال . وتذكرت رتيبة عادة أمها تلك ، وتشبها بها ، فانفضض فؤادها بحنين متوجع ، وزفرت وهى تستغفر الله ، وغسلت يديها ، ومسحت على وجهها بالماء . . .

وارتفعت من أسفل الدار سعلة أخوها شوق ، وهتفت بهانة :
- هاقد عاد ابن سيدى . . . جعل الله فى ركابه السلامة وفى دوائه

الشفاء .

وتلاقى نظر شوق ونظر أخته فى تساؤل صامت ، وردت عليه فى خفوت :

- كما هى . . . أذعنت من أثر الحقنة ونامت . . .

فوضع شوق لفافة الدواء من يده على المنضدة ، وجلس على المقعد بجوار الفراش ، ومسح بكفه على جبهته ووجهه كله كمن يتيمم ، ونفخ من فيه نفخة قوية وتعوذ من الشيطان الرجيم .
- بيده وحده الأمر . . .

ومال بنظره إلى المنضدة ، ومد يده إلى لفافة الدواء فاستخرج منها قارورة وكيساً من الورق :

- هذا الكيس فيه لصقة توضع على الظهر . . . وهذه القارورة فيها

دواء للاستشاق . . . توضع منه ملعقة صغيرة على ماء يغلى فى كوز ، أو
براد شاي . . . فيفتح الرئتين ويسهل التنفس . . . ويده وحده
الشفاء . . .

وساد الصمت قليلاً ، وفيه شيء من الحرج الذى ارتسم على
وجهه . فنظرت إليه أخته نظرة تساؤل وقالت كأنها تخمن ما به :

- أضع لك لقمة تأكلها . . . ؟

وقفزت بهانة من مجثمها على الأرض تنوى أن تصدع بذلك الأمر ،
فرفع شوق يده يستوقفها ، وأشاح برأسه فى سأم وهو يغط شفثيه :
- ماى رغبة فى الأكل . . .

فرشقتها أخته بنظرة ثاقبة ، وقالت وهى تشير برأسها إلى بعيد . . .
- لعلك أكلت هناك . . .

وأدرك أنها تعنى بهناك هذه بيته فى كفر الشيخ عند زوجته نجية ،
فاحمر وجهه كمن ضبط متلبساً . وقال :

- آكل إيه ؟ . . . مسكينة هى الأخرى . . . حالتها صعبة . . .
لا نسر أحداً . . .

فأسبلت رتية عينيها ، وعثت أصابعها بالأساور الذهبية التى فى
ذراعها الأخرى ، كأنها تحصىها ، وكأن إحصاءها يحتاج إلى انهماك
شديد ، وقالت فى خفوت بارد :

- سلامتها . . .

وقامت تتشاغل عنه بحس جين أمها وكفيها ، وحبك الأعطية حول

رقيبها ، مع أنها لا تحتاج إلى حيك ، ثم عادت إلى الجلوس . . .
وطالت فترة الصمت ، حتى قطعها شوق بتأفقه ، وهو يهرش
بأنهياك قفاه ، وظهره تحت الثياب وبطنه ، وتطلعت إليه أخته في
تساؤل ، فقال :

- هذا البرغوث ! . . هراى الملعون !

وانبرت بهانة تقول :

- ليس عندنا براغيث ومقام سيدى . . .

فكسرت رتيبة عينها وقالت بخفوت مصطنع :

- البراغيث لا تطوف إلا بالضيوف . . . فلو كانت هنا براغيث

لكنت أنا التى أحسست بها ، لآنت . . . !

فتطلع إليها فى حيرة كالمعتذر وقال :

- احمدى الله الذى جعلنى فداك . . . هذا الملعون ! ليتنى أقبض

عليه !

فاقترفها عن ابتسامة ذات مغزى ، وقالت :

- من يدريك أنه برغوث ؟ . . . لعله برغوثة . . . أنثى . . . ولعلها

جاءت معك من كفر الشيخ . . . وأضنها الغربية فاستحثثك للقيام . . .

وحملق فى وجهها كمن لا يفهم ، فاستطردت .

- قم أنت يا أخى وعد إلى بيتك ، فزوجتك مريضة ، وهى

وحدها . . .

فقاطعها بجمرة :

١
- وهل هذا يليق ؟ أأتتركك وحدك ؟ ...

- وما الذى يجرى لنا ؟ معى خالة بهانة ...

فظهر عليه التردد ، فقالت بهانة :

- ولو احتجنا لشيء فعندنا تليفون السراية ، ويأتى سيدنا البك

الدكتور ولو فى نصف الليل ...

فهز رأسه ونفخ كمن لا حيلة له ، وقال :

- حياة كلها متاعب وحيرة ومرض ... الأمر لك يا رب ...

ونظر إلى أخته وقال وهو ييسط يديه أمامه :

- لو لم تكن نجية مريضة أيضاً ووحدها بمفردها فى البيت ...

وتشاغلت رتيبة مرة أخرى بعد أساورها وهى غاضبة الطرف ،

وقالت :

- وماذا فى ذلك ؟ ... توكل على الله واذهب أنت ... صحبتك

السلامة .

وتناول طربوشه فى يده واتجه نحو الباب فى تهاقل وهو يقول من غير أن

ينظر إلى أحد :

- ... لتصبحا على خير .

وشيعته خالة بهانة بسلسلة من الدعوات الصالحات . . وشيعته رتيبة

بابتسامة ذات مغزى إلى أن توارى هيكله هابطاً السلم ...

ولم تلبث بهانة أن عادت من وداعه حاملة مصباح البترول بيد ،

وبيدها الأخرى تلطم فيها وذقنها بخفة وتقلب عينيها العشواءين وتقول :

- يعطى الخلق لى بلا ودان . . . ويعطى زينة الرجال لأنفس
النسوان . . . ورى يا خايبة للغيبة . . .
ثم جلست تحت أقدام رتيبة ، وراحت تثرثران طويلاً عن فصول نجية
مع « حبيبتى الغالية سى » ألف سلامة لها إن شاء الله ! . . . وكيف
حرمت بيت ابنها على نفسها كراهة لسحتها المقلوبة وقبها الأسود ولسانها
الطويل . . . ! وكيف أن « ابن سيدى » ضعيف أمامها جداً . كأنه عبد
أسير . . . !

وهزت رتيبة رأسها طويلاً ؛ فهى لا يعجبها فى المرأة أن تسيطر ،
ولا يعجبها فى الرجل أن يتضاءل . . . وحتى لو ضل فؤى امرأة هذه التى
تتناول نركبه هذا الركوب البغيض الذى يهدر احتشام الأنوثة ؟ . . .
وتذكرت زوجها وتطامن له ، وتملكها زهو واعتداد . . .

دقن السيسى

تدفقت الأحاديث موهناً من الليل إلى أن خفت وطأة الخدر عن المريضة ، فأخذت تن وتنفز ، وتلاحقت أنفاسها ، فهبت المرأتان في دعر وفرع ، وأسرفت بهانة بالموقد وطبق من الصاج فصبت فيه ماء ودفقت فيه ملعقة طافحة من صبغة الجاوى في حين كانت رتيبة مشغولة بهدهدة الأم المكروية ، تختصنها حيناً ، وتربت على يديها حيناً آخر ، وترفع عينها إلى السماء كأنها تستنجدها ، وتغمغم في عصبية لهفانه :
- يا رب سترك . . . يا رب يا مطلع أنت أعلم . . . انظر إلى هفتى وحرقتى ودوختى على السكك . . . والطف بها يا أرحم الراحمين . . .
وما أتمت بهانة وضع الجاوى على النار حتى أسرع إلى جانب سيدتها ، تبرجم ونحوقل على طريقتهما الملسوعة التي تحشر فيها دائماً « سنى »

و « بنت سنى » . . . و « سألته سلامة بإذن المولى » . .
وهذأت أنفاسها رويداً رويداً ، ولكن الرعدة انتابتها ولم تركها كأن
بها مس كهربا . وارتفعت حرارتها ارتفاعاً فاحشاً ، وأخذت تهذى
بمقاطع غير مفهومة . فانساب الدمع على خدى رتيبة . وأخذت تلطم
وجهها .

- يا حوسى . . . أغيشنى يا بهانة . . . يا من يأتبنى بالدكتور؟

- سأذهب يا بنت سنى لأناديه . . . التليفون فى السراية . . .

- لا تركبى وحدى معها وهى بهذه الحالة . . .

وأخذت تلطم وجهها وتضرب فيها وتولول :

- يا خبيتك يا امه ! . . . يا عديمة الولد يا امه ! . . . يقعد لك

فى ولادك يا نجية يا بنت « مندوكة » زى ما حرمت أمى وجبدها
بالخيا . . . !

- ما يجيش منه يا سنى ! منها لله . . . أخطف رجلى هوا لباب

السراية وأناذى الغفير يشد التليفون لليه الدكتور . . .

- ما تعوقيش يا بهانة ! حوش يا رب ! يا حامى يا رب ! قوليل

بس أعمل إيه يا امه ! قوليلى أجيب لك إيه . . . ردى علىّ وريحى
قلبي ! تشرى ؟

وحاولت أن تسقيها . ولكن الرعدة حالت دون ذلك . فوضعت

الكوب من يدها وراحت تمسح العرق عن جبينها بطرف الملاءة . . .
ودخلت عليها بهانة تتعثر من كثرة الجرى حتى تلاحقت أنفاسها !

- زمانه جاي يا بنت ستي . . . ما تخافيش . . . يا أرحم الراحمين
يا رب ! خمس دقائق يكون هنا البك الدكتور بالكومبيل .
وأسرعت إلى المطبخ فعاتت منه بطبق فيه مزيج من خل وكحول
أحمر ، ورشت عليه مسحوق الفلفل الأسود ، وتناولت خرقة جعلت منها
كمادة تبللها من السائل وتضعها على رأس المريضة .

- تلقط النارية من نافوخها ياذن الله ! ربنا يقدم الطيب !
وأخذت وهي تضع الكادة على رأس المريضة تمسح على وجهها
وتتلو رقية «عاشوراء» ، وتتشفع بفاطمة الزهراء والحسن والحسين وسائر
أهل البيت المطهرين . . .

وبعد هنية أخرى علت أنفاس المريضة ، ولهت بصوت أقرب إلى
الشخير ، فحفظت عينا رتيبة وصرخت مروعة . وفتحت المريضة عينيها
الزائغتين ، وأخذت أصابعها تجذب الثياب من حول طوقها كأنها تريد
أن تنصوها عنها أو تمزقها ، فريعت رتيبة ولطمت خديها :

- يا خسارتك يا امه ! يا حبيبي يا امه . . . ! فين انت يا شوقي
تشوف أملك في ساعة الندم والعدم يا حيلة العمر !

وسمعت على السلم أصوات أقدام مسرعة . . . واندفع الدكتور زكي
في بيجامة عليها روب كحلي من الصوف ، فاستقبلته رتيبة في وسط
الحجرة باللطم والصراخ :

- ما خلاص يا دكتور . . . عليه العوض يا دكتور . . .
يا خسارتك يا امه ! وتهون عليك أم شوقي يا دكتور . . .

ولم يلق إليها بالاً ، بل انقض على المريضة وانهمك في فحصها بسرعة . ثم نادى بأعلى صوته :

- الخيمة يا إبراهيم ! بسرعة !

فدخل الحجرة على عجل رجل يحمل شيئاً أشبه بالناموسية ووراءه كرة كبيرة من المطاط الأحمر . . . وانهمك معها الطيب في تركيب الخيمة على فراش المريضة ، وبدأ في تشغيل جهاز الأكسجين . . . وفي تلك الأثناء كان هدوء الطيب ، وطابع الجد الذي بدا فوق محياه ، وتلك العملية الغريبة التي قام بها مع المساعدين - قد سلبت رتيبة هستيرتها ، فسكنت عن الصراخ وانصرفت إلى مراقبة ما يحدث ، ولكن الدموع الصامتة لا تكف عن الانسياب على وجنتيها المحمرتين باللطم ، والنحيب يعلو بصدرها ويهبط ، وذقتها البارز المدب يرتعد مع شفيتها . . .

واستقر عمل الجهاز وانتظم ، فأمر الدكتور زكى مساعديه المجلبين بالخروج من الحجرة ، وأمر بهانة أن تعد لها مكاناً في المطبخ يستريحان فيه ، ليكونا على كنب منه لثلية أول إشارة .

وما غادروا الحجرة ، حتى اندفعت نحوه رتيبة حيث وقف يرقب تطور الحالة . ووضعت يديها على مقدم ذراعه الأيمن ضارعة :

- حثخف والنبي ؟ . . .

رفع إليها عينيه بنظرة تمتزج فيها الدعابة بالزجر والتفريع ، وقال :

- هو هو ! هي الشعنونة تنتها شعنونة على طول ! ؟

فلاحت على شفيتها ابتسامة زادت بها رعشة شفيتها وذقنها المديب
كالكمثرى ، فقط شفته السفلى ، ولعلت عيناه ، ومد إصبعه فضرب به
ذقنها وهتف ساخراً :

- دقن السيسى ! هى بعينها بتاعة زمان !
ونظر وقد دار بوجهه إلى قفاها كمن يبحث عن شيء بكل جد
واهتمام ، وظهرت على وجهه الدهشة وحملق بعينه وصاح :
- عجيبة ! راحت فىن الزعرورة بتاعة زمان ! آه لو كنت
لقيتها . . . كنت ماكدبتش خبر . . .

وألصق لسانه بسقف حلقه وأطلق منه طقطقة كالتى يطلقها الخوذون
لحى الخيول على الإسراع فى السير :

- كنت مسكتها «سرع» ، ولفيت وراك الدار زى زمان . . .
فعضت على شفيتها حتى لا تضحك واستحييت وقالت له بعتاب :
- يا خويا . . .

كأنها تقول له وهل هذا وقته ؟
- إحنا فى إيه والا فى إيه . . . !

- عدم المؤاخذه . . . لا يخفأك أخوك زكى طول عمره هايف !
- ورحمة أملك يا دكتور . والنبي . . . تقول لى . . . حتحف !
فأشار بسبابته إلى المريضة داخل الخيمة وقال وهو يتسم فى طمأنينة :

- انظري بعينيك . . . ها هو ذا وجهها قد ارتدت إليه الحمرة ،
ونفسها قد انتظم . . . وبكره تبقى عال . . . بس اهدئي انت . . .
ودعي هذه الشعنة وهاتي عدة القهوة واصنعي لي هنا أمامي فنجانا
مضبوطا . . .

البساط أحمدى

وصدعت رتيبة بأمر زكى فى اهتمام ، فجمعت كنكة القهوة
والفناجين و «مجمع» البن والسكر العتيق ، ورأتها بهانة تفعل ذلك ،
فبادرت تستبقها إلى أداء ذلك العمل عنها ، على مأثور عاداتها . فردتها
رتيبة فى لطف وحزم . ولحمت العجوز على فم السيدة الشابة المحزونة شبح
ابتسامه توشك أن تنطلق ، فقالت :

- أذهب الله همك ، وأضحك سنك . . .

فانفجرت أساريرها باسمه يكاد ابتسامها يعربد فى ضحكة ذات

جرس :

- همّ يضحك وهم يبكى يا خاله بهانة . . .

- بعيد عنك الهم يا نظير خالك بهانة يا بنت سنى . . .

- ما تغير الدكتور زكى ، وقد وخط الشيب فوديه ؟ هو هو بشقوته
وعيشه الذى لا يبالى حرجاً ولا يقيم لشيء وزناً

- نفسه حلوة يا بنت سنى . . . ترى ! لكن فى يده الشفا . . .
فكّ الجذ ملامح رتيبة . وقالت بصدق وحاسة :

- فى يده السحر . . . الحق حق . . . نفسها هدأ . . . وردت فيها
الروح . . . ربنا يتمم جميله .

وحملت رتيبة الصينية النحاسية اللامعة وأسرعت إلى الحجرة ،
فوجدت (زكى) قد اقتعد الأرض على فراء كبش أحمر ، وأسند ظهره
إلى الأريكة ، وربع رجله . فوقفت عند العتبة ، ولم تملك نفسها أن
انفجرت ضاحكة . وضحكت عيناه ، ولكنه عقد حاجبيه كالمقطب ،
ومط شفته السفلى كالمستنكر . فقالت وهى تغالب الضحك :

- كفى الله الشر ! إيه اللي قعدك القعدة دى يا دكتور . . .
فأشار إلى ركبتيه وقال :

- هاتان . . .

ثم إلى مؤخرته وقال بلهجة رسمية كأنه يقدم شخصية فى سهرة :
- وهذه ! . . . والبساط أحمدى !

فاشند عليها الضحك ، واهترت فى يدها الصينية ، فقال لها وهو
يجذب وسادة من سائد الأريكة فيضعها أمامه على الأرض ويسويها
بيده :

- هاتى هنا هاتى . . . واقعدى على الأرض قبالى . . .

يا مصراوية ! من فات قديمه تاه . . . !
فوضعت الصينية على الوسادة ، وتربعت قبالتها وقالت وهى تشعل
موقد الكحول :

- مصراوية إيه بأه . . . يا وارد بلاد بره يا أورباوى . . . آه لو
شافوك العباين قاعد القعدة دى . . . !
فأشار بكفه مشيحاً كالمثفاخر :

- حيلك . . . ! وباقعد قباهم دى القعدة . واكسر فحل
البصل . . . أدشه بإيدى دى دش . . . وأخم فيه خم قول
يا باسط . . . واللى مش عاجبه يداويه اللى بيتربع على المسطبة . . .
يدور له على حكيم بكرسى قلاووظ . . . إياكش السر فى
القلاووظ . . . ! واللايكونش عقلك صدأ فى مصر . يابنت
يارتبية ! . . .

فألع عليها الضحك . . . فزجرها ولكزها فى ذراعها . . .
- خيبتك خمارى ! اصحى يابنت للقهوة حتفور منك . . . جاك
خابط !

فأسرعت تنزل القهوة وتنصبها فى الفناجين ، فارتعدت يدها من
اهتزاز الضحك ، فتناولها منها ، وصبها بيد ثابتة . . . وقال بكل جد
وخشوع :

- فلنشرب مولاتى هنيئاً من يد عبدها الخاضع !
فرشقة بنظرة بين العتاب والسرور والاستنطاف المفرط . فصاح بها :

- قولها ولا تخافى . . . «يا بن الكلب ! اطلع من دول !»
- لا تجوز عليه إلا الرحمة . كان راجل طيب . . .
فتخشع بصورة تهكمية ، ورفع كتفه إلى السماء وقال :
- الفاتحة لروح أبو زعبوط . . . يخرج من ظهر العالم فاسق . . .
فوجدت نفسها تقرصه فى يده الممدودة إلى السماء وتقول :
- أما تتورع عن حرمة ! أما ترعوى وتكبر وقد وخط الشيب رأسك
وصرت طيباً ملء الدنيا . . . ؟

- ما زادنى الشيب والحمد لله إلا عيباً . . . اللهم أمتنى ضاحكاً
مازحاً مهزأراً . . .

ورفع عينيه إلى السماء فى ضراعة ، ثم تناول الفنجان فرشف منه .
فرشفت من فنجانها وهى لا تحول بصرها عنه . . . فرمقها من طرف عينه
بنظرة أضحكتها ، فانتثرت القهوة من فمها على ثيابه وثيابها ، فصاح :
- هذه آخره خدمة العجربا زكى . . . أهذه هى الكسوة التى
كسوتنى إياها بعد غيبة السنين الطويلة ! . . . نهايته . . . خذى . . .
وصب لها فنجاناً آخر . . . تناولته وهى تحاول كف الضحك ،
وتمسح الدموع من عينيها وتقول :

- اللهم اجعله خيراً يا رب . . . اللهم اجعله خيراً . . .

فحملق فيها وصاح :

- ما هذا يا مصراوية يا بنت الأكابر ؟ . . . أتظنين السماء تغار من
ضحكتنا ! أتظنينها «غاوية نكد» ؟ اضحكى ولا تبالى . . . هذه هى

ديانتى وفلسفتى وحياتى . . . !

ووقف وهو يكلمها ، ومال على المريضة يفحصها بنظره ، ثم جس نبضها ونظر فى ساعة معصمه يعبه ، ونظرت رتيبة إلى وجهه فلم تجد لذلك الهذر أثرا ، بل رأت الجسد كاملا . . . كأنه زكى آخر غير الذى كان يمارحها منذ لحظة واحدة . . . زكى آخر يوحى بالثقة وينطق بالكفاية . فأخذها العجب منه ، ثم رآته يتحول إلى حقيقته فيستخرج منها وعاء للحقن . ويشعل موقد الكحول ، ويضعه عليه وهو يدندن . فسألته فى قلق :

- أبها شيء . . ؟

- أبدا . . . لها سبعة أرواح . . .

- اخص عليك . . .

- شيء بارد ؟ العيب من أهل العيب . . . مش عيب . . . ألسنت

مزبلة . . . ؟

فقالت :

- قلبك أبيض . . . بس لسانك . . .

- زفر . . . قولها ولا تخافى . . . الخلو ما يكملش . . .

ونظر إلى مرآة الدولاب ولعب لصورته حاجبيه . . . ثم التفت للحقنة

وأخذ يعدها ، وهو يقول :

- سأعطيها هذه فتنام نوماً جميلاً . . . كالملائكة . . . ونرفع الخيمة

عنها . . .

ويبدو ثابتة حقنها في الوريد . . . وأخذ يعد نبضها بعد ذلك ،
وفحص صدرها وتنفسها بالسماع ، وظهر عليه الارتياح ، وصافح يميناه
يسراه بكل حرارة وهتف :

-- والله براوه عليك . . . ! والله فلحت يا بن أبو زعبوط !

فوضعت رتيبة كفها على شفا لتخفي الابتسام وقالت :

- تسلم إيدك . . . ويحميك ، وبيارك لك . . .

فمسح يده دموعاً وهمية ، وارتعشت شفتاه في تهكم وقال :

- شيء مؤثر . . . ! جيتي البلاغة دى كلها مزين . . . أموت نفسى

يا علم ! . . .

وجذب شعر رأسه بيديه ، ودارت عيناه في الحجرة ، فأنفجرت
ضاحكة . فأقبل نحوها ووضع يديه في خصره وقال وهو يشبث فيها
عينيه :

- والآن يا ست ثنيات : جاء دورك لتخدمك يدى كما خدمت

أملك من قبل ومن بعد . . .

فنفرت إليه مستغربة ، فبسط لها كفها ، وفيها حبة حمراء وقال
بلهجة خطابية يوسف وهبية :

- بهذه ستلحقين بأملك في وادى الكرى ، حيث تنعمين بأسعد

الأحلام ، بدون كلام . . . !

فدقت صدرها بيدها وهتفت :

- نام ؟ وهذه من يسهر عليها ؟

وأشارت بيدها إلى أمها المريضة . . .

فكسر عينه اليمنى وقال لها بتهكم :

- والنبي إيه ؟ بأه تسهرى ؟ ورايحه كده ما شاء الله تعدلى المايل
بسهرك ؟ ولما انت تسهرى يبقى العبد الفقير لازمته إيه ؟ فضيها سيرة أيتها
الأميرة . . . واطمنى - أنا قدها وقودود . . .

فهازت رأسها سلبا بإصرار ، فهاز رأسه إيجابا بإصرار ، ورأت على
وجهه علامة الجذ التي تلازمه حين يقوم بالقحوص ونهض بالعلاج ،
فقالت في احتجاج كمن تدفع شيئا لا قبل لها به :

- قلبى ما يجينيش ! مستحيل . . .

- قلبك لا دخل له فى الموضوع . هذه مسألة طب وهذا أمر وليس
رجاء . أمك ستكون بحاجة لعافيتك كلها فى تمريضها الطويل ، وليس
فى مصلحتها أبدا أن ترهق نفسك لوجه الله - أو لوجه الشيطان
الرجيم - بالسهر وأنا موجود فعلا وساهر فعلا ، وسهرى نافع لها من غير
سهرك . . . حتى لا ترقدى بجوارها حينما لا يكون بجوارها سواك . . . أم
تظنين المسألة مقاومة ومظاهرة . . . ابلى !

ووجدت نفسها تبلع الحبة ووراءها جرعة ماء . . .

- والآن هيا يا طفلى المطبعة إلى فراشك . . .

فظهرت عليها الحيرة ، ثم تذكرت أن الحجرة المجاورة بها أريكة
إستامبول ومقاعد طقم « الشيخ أحمد » المريحة ، ولها نافذة شرقية كبيرة
تطل على الحقول . . . فقالت وهى تهم بالخروج :

- أعلم أنى لن أنام . ولكنى سأرقد هناك حتى لا تتكدر . . . وعند
أول نفرة بإصبعك على الحائط الذى بيننا ستجدنى أمامك . . .
- يا حفيظ ! . . . بل ستنامين يا محترمة . . . فالحبة ذات مفعول
جبار ، والآن تصبحى على خير . وسأضطجع أنا على هذه الأريكة . . .
ومد إليها يده مسلماً ، فصافحته ، فرفع يده إلى فمها وقال بتوقر :
- الطعى إيد عمك يا بت . . . واسأليه الدعوات !
فضحكت واحمر وجهها ولم تفعل ، فhez رأسه مستنكراً وهو
يسترده يده :

- عليه العوض ومنه العوض ! جيل خسع . . . عديم الأخلاق !
وغادرت الحجرة وهى تضحك ، بعد أن ألقت نظرة على أمها وهى
تقول :

- لما أشوف أنا بأه وللاللبسوعة بتاعتك الليلة دى . . .

الأميرة النائمة

أملت رتيبة بدورة المياه، ثم أخذت من المطبخ مصباحاً صغيراً، ووجدت بهانة نائمة تغط في رتابة، فبهزتها حتى أيقظتها وصحبها إلى تلك الحجرة الصغيرة المجاورة لحجرة أمها، وهناك أمرتها أن تنام على الأرض، ووقدت هي على الأريكة...

وهكذا وجدت نفسها فجأة وقد خلت إلى نفسها تماماً بعد أحداث ذلك النهار العجيبة. فأذهلتها تلك الدوامة. وأذهلها فوق ذهول ما اكتنف جو تلك الأحداث من مفارقة لا تكاد تصدقها وهي تسرجعها، لولا أنها لم تغادر جوها إلا منذ لحظة.

أمها توشك أن تزفر زفرتها الأخيرة... لولا هذا الرجل... رجل؟...

إنها لتحملق في الظلام دهشة لأمره وأمرها . . . لأنها لم تلتفت إلى أنه «رجل» طيلة تلك المدة !

ووجدت نفسها تجمع قب ثوبها حول عنقها في استحياء ، كما تفعل أمام الرجال الغرباء ، وأخذتها قشعريرة خزي . كيف لم تستر أمامه ، ولم تغط رأسها ، ولم تصلح من زينتها ، ولم تحتشم في القول . . . ؟ ولم تلبث أن هونت على نفسها . فما هو برجل ، ذلك المهرج المبهذار . . .

إنه ما أشعرها أنه رجل ، ولا ذكرها أنها امرأة ! فما كان يستحق أقل من هذه الاستهانة به في الحديث والإشارة . وهو المستين بنفسه وبالدينا وبكل شيء . . . !
وتوقفت لحظة .

أهو حقاً مستين بكل شيء ؟ وهذا العناء كله من أجل أمها ؟ وهذا الجد كله الذي ينطق به كيانه بأسره وهو يفحص ويعالج ؟ وهذه الشهرة التي فشت في جميع الألسنة بما يتجشمه في الطب لمرضاه ، وسوادهم من صغار القوم لا يملكون له جزاء ولا أجراً . . .

وأخذتها حيرة أشبه بالوجل أو الرهبة . . . وهو شيء لم يخطر ببالها قط أنها ستحسه من نحوه ، وهي تصغى إلى أفانين هذره . . . قطعاً ! ليس زكى ذلك الهزأة الذي يبدو من ظاهر قوله وهذره . وليس الماजन الذي يترأى مستهيناً لاهياً . . . إن فيه لسراً خفياً ، لا يبدو وهو مائل ، ولكنه يترأى حين يغيب . فهو شهم لاشك ! قوى

لا شك ! فيه نخوة للملمات وهمّة . . . بيد أنه يحرص أن يهون من كل ما يفعل ؛ حتى ليبدو في عين الناس وكأنه لهو وتفاهة . . .

وقطبت حاجبيها هنيئة ، وهى تكاد تلمح السر الكامن وراء هذه النفس البسيطة خلف قناع التمثيل . . .

إنه خجول ! خجول لأنه نبيل ! يخجل أن يبدو نبلة ، فيجشم الناس احترامه ويركب أعناقهم دينهم لفضله . . فيؤثر أن يصطنع المنذر ، والتفاهة ، والاستهانة . . . كى يرفع عن الناس ما فى المعروف من حرج ، بل ما فيه من مذلة . . .

وتصورت سواه يصنع بعض صنيعة ، وكيف يتدلل ويمن ، أين كان مجلسها حرياً أن يكون منه ؟

عند قدميه ولا محالة ! وكانت تحتد كيف توفيه الشكران ، وكان يتقبله منها فى (تنازل) يزيدا حيرة وضالة وحرماً . . . !

وهاها غباؤها ، وبلادة حسها . وأنها كانت ألوعة هذا الرجل إلى هذا الحد . ما ظنه بها الآن ؟ إنها طفلة ! إنها بلهاء ! إنها غريرة ! . . . ما أقوى أعصابه ! لقد استطاع أن ينقلها من الفرع والجزع إلى الطمأنينة ، كأن أمها فى غفوة سبات ، بل نقلها إلى الطفولة اللاهية عن كل هم ومشقة . . .

ما أنبله ! وما أبرعه ! لم يكفه أن ينقذ الأم ، بل أبى إلا أن يحمل العبء والسهر والقلق وحده ، ثم أرسلها لتنام كأنها طفلة لا شأن لها بهموم الكبار !

باله من رجل ! . . .

ورنت كلمة الرجل في ذهنها مرة أخرى رنة الغرابة . . . كيف لم يشعرها وكيف لم تشعر أنه رجل طيلة مكثها معه ؟
وتراءت لها صورة « الرجل » كما رسخت في سريرتها فإذا هي من « الصم » قريب من قريب .

وقار أوترمت ، ورنين ينبعث من جميع حركاته وسكناته ! للسلعة رنين ، ولوقع القدم رنين . وللنظرة رنين . إنه رنين السميت ، رنين تأكيد الذات ، رنين الدعوة الى التمجيد . . . !

أما « هذا » فعلى التقيض من ذلك كله : لا رنين ولا دعوة الى التمجيد ولا وقار ولا ترمت ، بل هروب من المظهريات كنها إلى التويه بعكسها في نية صادقة وبراعة لا تتأني لغير المخلصين !
وهذا هو السر الخفي الذي جعلها لا ترى فيه رجلاً ، ولا تحتشم منه ، ولا تتبرج له . . .

وتحسست وجهها وشعرها . . .

ماذا يقول عنها الآن ؟ وكيف تراها بدت في عينيه بهذه المبادل وعلى غير نسق من زينة أو هندام ، وهو الذي لم يرها منذ زمن بعيد ؟ . . .
ونال منها أنها لم تكن على ما تشتهى وإن كان المقام لا يسمح ، ومع هذا فمن يدرى ماذا كان يفعل أو يقول لو بدت له في زينتها ؟ إنه مخلوق غريب ! . . . لقد أمسك ذقنها وقال لها : « دقن السيسى دقن الفار . دقن محمد النجار » ! كما كان يفعل وهما صغيران ، وبحث عن صفيرتها وراء

ظهرها يقودها منها كاللجام !

وراودها الضحك ، فى شىء من خيبة الأمل . . . فلا أمل مطلقاً أن
يفقدو هذا المخلوق رجلاً تشعر أمامه بشعور النساء . . .

وتنهدت بارتياح ، فذلك أيسر على نفسها وضميرها . وحمدت الله
وأخذت تفكر قليلاً فى بينها وزوجها وابنتها ، وعرجت أيضاً على أخيها
شوق ونجبة ، ثم استأثر بها النعاس . . .

ورأت فى منامها أحلاماً متداخلة مضطربة . وكانت معظم الوقت
كانها فى تيه من المسالك والدروب لا تستطيع الخروج منه . . . إلى أن
نبهها طرق كأنه ضرب المطارق فى دماغها ، ففتحت عينيها فى تناقل ،
لتجد نور الشمس يملأ الحجرة ، وباب الحجرة يطرقة طارق ، فقفزت
من الأريكة مروعة ، ولم تجد بهانة على الأرض ، وفتحت الباب لتجد
(ركى) يصيح بها معاتباً :

- ناموسيتك كحلى ، باست هانم ، كفايه نوم بأه ، وسلفيتى شوية
إياك أخطف لى تعسيلة . . .

ودخل فارمنى على الأريكة ، ورآها واقفة فى مكانها مأخوذة
فصاح : - مالك - كنى الله الشر؟ نائمة للضحى العالى ٢٤
قيراط . . . إيه اللى ناقص كمان ؟

وضرب رأسه بيده فجأة كمن تذكر شيئاً :

- آه ! طبعاً طبعاً ! الأميرة المسحورة كانت نائمة ، وطبعاً بتحلم
بفارس على فرس أبيض زى اللبن يخطفها على حصانه ، ويحط ديله فى

أسنانه ، وعلى مملكة أبوه سلطان الجان . . . وكان ياما كان . . . وهف
طلع النهار . . . يا حسارة ! حكيم كحيان ، دقنه طويلة ، وحالته
عبرة . . . ! عدم المؤاخذة ياست رتيبة . ، الموجود ! ماكنش ينعر !
خذى الباب فى إيدك يا ضنايا ، واغسلى وشك ، وافطرى . وخذى
شعرتين من رأسى . . . إن عزيتى طقطقيهم تلاقينى قدامك . . . وإن ما
نفعش تعالى ارفسبى وقولى فى قوم فر . . . فرك قرد . . . آجى قايم على
طول . . . جنس واطى . ما يجيش بالدوق !

وغطى رأسه بالملاءة . وأدار وجهه للحائط . . . فخرجت رتيبة
وأغلقت الباب . . . ووجدت بهانة جالسة على الأرض ورأسها يتر من
النعاس . وأما نائمة منتظمة الأنفاس ، فلمست رأس بهانة . فانتفضت
قائمة ، وقالت بحماسة :

- ربنا يحبك يابنت ستى الى نزل عيبكى النوم . . . سيدى البك
الدكتور صحافى ياستى . وعلى رجل واحدة للصبح . . . نغلى فى
حقن . . . أعطاها يابنت ستى ييجى ٨ حقن لما بأه العدوين يصب
العرق كده . . . ولم سابها أبداً إلا لما نفسها هدى ونامت . قعد جارها
برضك . ويخس أيدها ورأسها ، ويبص فى الساعة . وينقط لها دورا . . . على
دى الحال للصباح . . . حتى إنه قال : الحمد لله . . . قدر ونظف . . .

هذا إذن ما حدث . . . وهو لم يشر إلى شيء منه إطلاقاً ، ولم يجد
لساناً إلا للحديث عن الأميرة النائمة ، وسلطان الجان . . . كأنه كان
ساهرأ عند كشكش به ! إنه لعجيب !

النافذة المفتوحة

وانقضت بعد تلك الليلة أيام عصبية لم تدرك فيها رتيبة من الراحة والنوم إلا أقل القليل ، وكان زكي على تردده الدائم بين عيادته في البندر ودار المريضة لا تراه رتيبة إلا هاشاً ضاحكاً مهوئاً من الأمر ، فينسيها ما تحسه من الإشفاق والخوف ، ويبث في نفسها الطمأنينة والثقة .

وكانت المريضة قد تنهت من غيبوبتها ، وبدأت تن وتكثر من التوجع ، وتلح في مطالب صغيرة غير مفهومة ، ولا ترى زكي حتى تدعو له بحرارة ، وتتندى عيناها بالدموع . ولا تنسى أن تشفع باسمه في الدعاء اسم ابنها شوقي ، وكان شوقي يلم بالدار سحابة النهار ، ويقضي جل وقته نائماً ، فترمقه أخته في ازدراء ، وتسأله أو تسأل نفسها : هل عليه فضلة

نوم ! . . . فترميا أمها بنظر ملام ، وتلوح بظاهر كفها في إعراض وإغضاء وتقول لها :

- أخوك قليل البخت يارتبية . . . غلبان . ربنا يصنع له

الحال . . .

فترم رتبية شفتيها في امتعاض وتقول :

- امرأة هو حتى يجيب بخته ويميل حاله ؟ انقلبت والله الآية .

ثم تسكت على مضض ، أو يشغلها شاغل من خدمة أمها . . .

وألح الإمساك على المريضة ، فوصف لها زكى دواء . . . وكانت

لا تقدر على النهوض ، فأتاها من عيادته بقصرية سرير ، ولكن المرأة

الرفيعة العجوز لم تتعودها ، وأبت أن تستقر فوقها ، وصرخت متألمة ،

فرفضت رتبية - وكانت تعينها بهانة - الإناء من تحتها ، وما فعلتا حتى انطلق

المحبوس في جوفها على الحشية والأغطية وكانت له رائحة الجيف ،

فاستشاطت رتبية غضباً ، وانفلت زمام أعصابها وهي التي انهمكت في

السهر والقمريض والخدمة ، فصاحت تنهر أمها مغبطة ، وإذا الباب يفتح

ويتسلل منه زكى . ما الخبر ؟ وأدرك الموقف على الفور ، ورأى المريضة

تكاد تموت خزيًا ، فأزاح رتبية من موضعها وقال لها بحزم وترفق أن تشغل

نفسها بإعداد الأريكة ، وإحضار الماء الدافئ ، وقام بنفسه في صبر

ورقة وعناية بتنظيف جسم العجوز وهو يهون عليها باللفظ اللين والنظرة

الضاحكة . وكأنه يقوم بتمرين من تمارس الألعاب السحرية أمام

جمهور من النظارة في سهرة مرحة !

وتولى بعد ذلك رفعها على يديه كالدمية ، فأرقدها على الأريكة
وغطاها ، وترك لها أن ترفع على عجل أدوات الفراش التالفة .
وجذبت العجوز في غفلة منه يده فقبلتها وانفجرت باكية . . .

ولم يحتمل زكى الموقف فانتفض واقفاً وخرج من الحجرة . ولم تره
رتيبة قبل تلك اللحظة مضطرباً متأثراً . رآته يمسح جبينه بمنديل ، وقد
تصلب عنقه إلى الراء كمن يغالب رعدة جوانحه وهمهم :

- ما أهون شأن بنى آدم !

ولم تحبه رتيبة بشيء لأنها كانت موزعة الخاطرين السخط على نفسها
لما أفلت من زمامها ، وبين الحزى مما أقدم عليه هذا الإنسان من الرحمة
والبر بأمها المسكينة ، حيث قصرت هي ، وتقززت وأساءت !

وارتجفت من الاضطراب ، فارتعد ذقنها ، فقفزت الضحكة إلى
عينيه وهتف :

- والله زمان !

ودفع بسبابته في ذقنها ، فانفجرت ضاحكة وباكية في نفس واحد ،
فقال :

- أحسن !

ثم انفلت منصرفاً يهبط السلم درجتين درجتين ، فانجهت إلى النافذة
تزعم لنفسها أنها تريد أن تشرب من القلة الحمراء هناك لترطب حلقها
وتذهب عبرتها ، واختلست نظرة إلى الطريق ؛ لئلا ينطلقاً بسيارته إلى
المدينة ، ثم لبث بعد أن غاب عن نظرها تحملق في الحقول الممتدة إلى

الأفق البعيد ، وضوء الشمس يحلّوها صارخة الألوان ساكنة تحت
الوهج ، وأريجها الدافئ الهادئ يفوح في كل اتجاه .

وملأت صدرها من الهواء ، وأحست طمأنينة وهدوءاً وصفاء وثقة
تملأ جوارحها كأنها بعض ذلك النبات الباق من طينة الأرض ، أو بعض
ذلك الأرج الذي تفتقه الشمس عن أعواد الزرع . أحست اكتمالاً
لا تشوبه رغبة ، ولا تنقصه حاجة ، ولا تثلمه سلطة !

أمها على قيد خطوة أخرى منها في الحجرة الأخرى ، ولكنها لا تحس
مسئوليتها عنها عبثاً على سريرتها . وسائر ما يكبلها من فروض وصلات
ومسؤوليات هنا وهناك . كل ذلك لا تحسه هذه اللحظة قيماً على وجودها
وقد ارتدت إلى الطبيعة ، فإذا هي ذات متطلقة مستقلة ، ومن الانطلاق
والاستقلال هذا الأمن المطمئن وسكينة النفس . . .

وفي هدوء قرير ارتدت عن النافذة وانجذبت إلى حجرة أمها . فأقبلت
عليها تسرى عنها ، وكانت بهانة قد سقتها جرعة من شراب الليمون
وأخذت تهون عليها ، ولكنها كانت تخشى أن يكون أمرها ثقل على
ابنتها ، فلما عادت إليها ابنتها ولاطفتها اطمأنت وقالت كالمعتذرة :
- والرجل الطيب الذي ما كان ينقصه من همى إلا هذا . . .

واخجل !

فبادرت رتيبة تنفي في حماس شديد أن زكى كره منها شيئاً ، وتؤكد لها
أنه لا ينطوى على مضاضة منها على الإطلاق . . .

« الحق . . . كله إلا زكى . . . لا عليك منه . . . » فأمنت المرأة

على قولة ابتها في خفوت الإجهاد :

- صحيح كل الناس ولا زكى . . . إلهى بخله ، وينجيه . . . هو

وشوق . . .

ثم رنقت عينها للنوم ، وانصرفت رتية إلى الحجرة الأخرى ، حيث
النافذة المفتوحة والقنة الحمراء وأريكة نومها ، فاضطجعت تلتمس شيئاً
من الراحة أوسنة من نعاس . . .

وتذكرت ما كان منذ هنية حين دافعت عن زكى هذا الدفاع الحار ،
وأوشكت أن تجد في تلك الحماسة تزيلاً لولا أنها الحقيقة صدرت عنها عفو
الليخطة ، الحقيقة التي لا تجد فيها حيلة ولا تحس امتراء أوربية . . . إن
زكى غير سائر الناس ما إلى الشك في ذلك سبيل . الإنسان فيه غيره في
الناس كافة . غيره في الرجال ، بل غيره فيها . ولا حيلة لها في نقض
ذلك الإيمان أودفعه ، وقد قام عليه عندها ألف برهان . . .

وأحست لذلك الإيمان راحة وغبطة هدهدتها فنامت قريرة ولا تدري
كم من الوقت نامت إلى أن أيقظها ذراع يحيط عنقها وخذ يلتصق
بجدها ، ففتحت عينيها بجفلة مفزعة . لتجد ابتها حورية تعانقها . . .
وأوشكت تحسب نفسها في حلم لولا دخول «سى عز الدين» عليها في
معطف السفر الأصفر ، فهضت تستقبل القادمين في فرح وشوق
استحدثه اللقاء المفاجئ .

الطائر الصادى

لم تشعر حورية بألم عميق لمرض جدتها . وإنما كان ما شعرت به على الأرجح شيئاً أقرب إلى النفور والتقزز والاستطلاع الذى خالطه أسي ، ثم لم يلبث مع الوقت أن انقلب استطلاعاً مجرداً أصابه بالتدرج فتور لم يلبث أن انقلب ضيقاً واضحاً ، فنشاط الحياة فى سنّها التى تجمع بين الطفولة والصبا الينع لا يدع لها سبيلاً للوقوف طويلاً أمام ضعف الشيخوخة ووهن المرض . وعنقوان كيائها ، الذى لم يجرب العلة والضنى المقعد ، لم يسمح لها بفهم وجدانى صحيح لتلك الظاهرة ، فانطلقت كما تنطلق القبرة المغردة المتوثبة فوق أفنان الدوحة التى تظلل المقبرة لا تعبر الموت التفاتاً ؛ لأن حرارة الشمس وتدق الحوية استأثرا بوجودها جميعاً . .

لم يستوقفها جلال الموت ولا رهبة الانحلال يدب في البدن ، ولكن استوقفها بل استارتها دعوة الشباب والهوى : استوقفها زكى . . .

الثالثة عشرة وبضعة شهور لفتاة من طراز حورية مرحة عجيبة طريفة من العمر . . . تستعجل فيها الفتاة خطوات الزمن ، وتتمصص ريعان العشرين ، أو جبروت الثلاثين ، وتتكبر وتتكبر لطفولتها القريبة ، وتتطلع في وثوق وإيمان ولد إلى حقوق الأنوثة المكتملة ومتاعها العريض . . .

وزكى في تدفقه الحى بالمرح وطفولته المتجددة بالبساطة والتفتح والانطلاق - بدا لعينيها مثاقلاً ، كما يتألق الجدول الجارى تحت ضوء الشمس لعيني عصفور أضناه الصدى في حر الهجير وهو يضرب بجناحيه في رحاب الفضاء . . . وعند الجدول المتألق دوحة ذات أفنان ينشد لديها الظل والوكر والثمر . . .

وما على الطائر الصادى أن يكون تحت الثرى الذى تظله الدوحة ويربطه الجدول جدث طائر مهيبض ، هو جده فيما قبل أوجدته حين تلتبس الأنساب ؟

. . .

أقبل مع العصر زكى يعود مريضته ، فما وقعت عيناه على حورية ، وقالت رتيبة له من هى حتى رفع ذراعيه أمام صدره باسطاً كفيه كمن يدفع عن نفسه خطراً داهماً ، وصاح كالمرتاع :

- أمان أمان ياربى أمان ! ماكل هذا الجمال !

وتضرج وجه حورية حتى حاكى حمرة طربوش خالها وأيها ، وعربد

قلبا الفتى فى داخل صدرها . وكأنما هذه الكلمة كانت « لفظ السر »
الذى يفتح له ذلك القلب ، كما يفتح الكهف المسحور حين يقال له
« افتح باسمى » !

ولم يتركها فى خجلها وخدر نشوتها . بل مد يده فى جراحة وجذبها
إليه . ووضع إصبع يده الأخرى تحت ذقنها ، ورفع وجهها إليه ، فزاد
اضطرابها وغضت بصرها ، فانطلق زكى ضاحكاً وهو يقول لأُمها :
- ماشاء الله ! عروسة فينو . . وكيف تركوها تحضر من القاهرة
وحدها ؟ ألم يخافوا عليها أن يحطفها العرسان ؟

فبلغ اضطرابها ودوار نشوتها غاية المدى ، وارتحت ركبناها
وذراعاها ، وغشيت جوارحها غاشية ، فلم يقع على سمعها إلا من خلال
الضباب أو الحجاب السميك قول أمها لزكى كيف جاءت مع أبيها ،
وإن « سى عز الدين » خرج من بعد الغداء مع أخيها إلى المدينة ،
وأردفت كالمعتذرة :

- الرجال كما تعلم لا يطيقون البيوت . . .
فقال زكى برأسه إلى كتفه اليمنى ، مع تصلب فى رقبته إلى الخلف ،
ومط شفتيه وحملق فى حورية وقال بلهجته التى تخلط الجذ بالمزاح :
- عن نفسى شخصياً أنا قتيل البيوت ، وسكان البيوت ،
لأفارقها ولو بالنيوت . . . !

وجرها من يدها وراءه وهو يدخل حجرة المريضة التى استقبلته
بالدعاء اللاهث فى صوتها الواهن معبرة عن عجزها دون شكره ووفائه

بعض حقه ، فأشاح يده الأخرى وقال كالغاضب :
- فُضِكَ من الكلام ده أنا حاخذ حقى بإيدى . . . وأشار بسبابته
كالمتوعد المتحفز إلى حورية وقال :

- دى عروستى . . . واللاخسارة فى ؟
فضحكت الجدة فى وهن وهى أعرف الناس بمزاحه وقالت :
- وهى تطول ؟ جاريتك وخدامتك ! خدها من دى الساعة . . .
- استيينا . . . الفاتحة !

ورفع وجهه إلى السقف ، وأغمض عينيه وتمتم كمن يتلو الفاتحة .
ونظر حورية معلق به كالمهورة ، وهى تحسب نفسها فى حلم مدهل ،
وسرت البرودة فى أطرافها ، وتصيبت عرقاً . وأمها من وراء ظهرها
تغالب الضحك . . .

وقطع زكى تلاوته وحملق فى حورية كالمرتاع وصاح :
- ياخبر زى بعضه ؟ البنت تلجت من الخضة ! . . . معلش
الصبر طيب . . . شوية شوية . . .

وأطلق يدها ، وراح يعد ويمناه على أصابع يسراه :
- بكره أجيب لها حلويات وشكلاته ، وأفسحها معايا فى العربية ،
وأوريها شطارتى وخفافتى وأبهى لغاية ماترضى بى . . .
ونظر إلى أمها وجدتها وقال وهو يمسح شفته السفلى :
- اللى مايعرفك يجهلك . لسه مش عارفانى . . . بكره تعرف أن
مفيش منى ولا فى الأنكخانة ولا فى جنبينة الحيوانات . . . !

ونظر إلى حورية المذهولة التي بدأ الضحك يغالبها فزادها احمراراً ،
وقال :

- حاجة بسيطة جداً . . . عينة صغيرة تحت الحساب . بصي !
شفيتش عمرك بني آدم يلعب ودانه زى الحصان ؟ أنا ! بصي كويس !
وأخذ يحرك أذنيه من غير أن يتحرك حاجباه ، وخالسته النظر
متعجبة ، وانفجرت أمها ضاحكة . . . فرشقها بنظرة قاسية وصاح بها
مستكراً :

- بتضحكى على إيه ! صحيح لاكمرامة لنبي في وطنه ! . . .
مفيش تقدير للمواهب في البلد دي . . . علشان كده خستني متأخرين
على طول . . . اتخداك ! هزى ولوودن واحدة كده من غير حواجبك
ما تتحرك ؟ مستحيل ! بس زكى المصيت في الأربعاشر مديرية يقدر
عليها ! نبوغ فطرى يا أفندم !

وانصرف بعد ذلك إلى مريضته ريثما جاءت بهانة بالقهوة ، وشرب
زكى فنجانها ، وحورية تحالسه النظر ، ولا تنطق بكلمة على غير ما تعهده
نفسها . . . وقلب زكى الفنجان بعد أن احتسأه .

- وادى كمان حاجة ثانية . . . أشوف البخت في الفنجان ، وأقرأ
الكف ، وأفتح المندل . . . سبع صنابع . . . ولسه بكره ياما تشوف من
أبوالزريك اللي مش عاجبك ده . . . لحد ما تقولى ياريت اللي جرى
ما كان . . . وعلى رأى المثل خطبوها اتعززت فاتوها اتندمت !
ورفع حاجبيه كأنه تأمل وهو ينظر في الفنجان وهز رأسه مراراً وقال :

- متاعب . عقبات . ولكن النجاح مضمون . . . وشمع قايد ،
ونصرة ، وفرح بعد الزعل والدلال . . . وماله ؟ لا يأس مع الحياة !
ونهمز متصباً وبسط ذراعيه إلى الأمام . وقد جمع قبضته ممثلاً
العزيمة الصادقة على الكفاح وقد أطبق شفثيه وقطب حاجبيه . وبدأ في
تلك اللحظة مديداً وسيماً . . . وعربد قلبها من جديد . . .
والحنى كرقم اثنين وهو يسلم عليها متنصفاً الإجلال بكل جد ،
فارتعدت يدها المثلوجة في يده ، وطأطأت رأسها . . .
وكانت أمها قد روت لأبيها على مسمع منها أساطير شهامته وبراعته
في العناية بأمها ، وأطنبت في مناقبه وكرم نفسه ، وهو السيد ابن السيد
لأسرتها من قديم . . . ولكن ذلك كله لم يحدث في نفسها أثراً ، لأن
حياة جدتها نفسها لم تكن في أعماق سريرتها ذات أثر يذكر ، أما الآن
وقد راعها بوسامته كثيراً فقد تجمعت تلك المدائح التي كانت بغير مغزى ،
وصارت كالهالة حول بهائه الساطع الذي برز من بين الغيوم في أفق
وجدانها فجأة . . .

في الشرك

ولكنها هنا اليوم لا تريد أن تأكل . . .
شيء في صدرها يريد أن يغنى ويرقص ، والدوار لا يدع رأسها
الجميل يستقر كأنها أرجوحة شديدة الدوران جامحة الاهتزاز . والطبول
الوحشية لا تكف لحظة عن إرسال دويها المتلاحق تتداخل رعداته في
جوانحها الساخنة . . .

آه ما أجمل الحياة ! . . .
أونسيث أن جدتها مريضة وأنهم هنا جميعاً لهذا السبب ؟ كلا ، لم
تنس مرض جدتها ، ولكنها باركتها !
ما أطيب هذه الجدة الصالحة ! صحيح قطعاً ما قيل لها مراراً عن
صلاحها وتقواها وطيبها الملائكية . . . فما حدث لها بسببها كرامة لا يقدر

عليها إلا الأولياء الصالحون ذوو الأسرار !

القاهرة على ترامي أطرافها واتساع أرجائها وزخورها بالفتيان ذوى
النضارة والشبان ذوى البهاء ضاقت فلم يجد فيها قلبها مبتغاه ؛ لأن الحب
كان على موعد معها ها هنا فى أقصى الأرض ، فى موضع قفر ، حيث
لا يرجى افتتاح ، ولا تنشده صوة . . .

الحب ، أجل ، هذا هو الحب ، هو بعينه ذلك اللغز المجهول الذى
عرفت اسمه قدماً وحارت فى كنهه . سألت عنه البلهاء أنصاف ، ولم
يقنعها ما تراه لديها من الرجفات فى لحظات الوجد والهيان ، واستبعدت
أن يكون هذا هو الحب ، استبعدت أن يقع لها مثل ذلك الاختلال
الذى يوشك أن يشبهه بالخيال ، وكانت تزداد عقيدتها ببلاهة أنصاف
بسبب ذلك الذى تراه من أعراض الحب عندها . . .

ولكنها الآن وصلت إلى اليقين الذى لا امترأ فيه ، لقد شككت فى
أمر الحب حين بحثت عنه بعقلها ، فعجزت مقاييس العقل عن إدراكه
بالبرهان ! أما وقد « وقع » الحب لها فلاشك فى الحب ولا ارتياب ؛ لأن
معرفة القلب لا تفتقر إلى البرهان ، وها هنا قلب يدق بأقصى قوته ، يدق
أجراسه جميعاً دقائق العيد والمهرجان والنصر المؤزر المين . . .

كم تطلعت فى المدينة الكبرى فى وجوه الفتيان . فلم يستجب لها
محجب ! وكم ناوشت القريب بعد القريب ففروا منها ، ولم ينظر إليها أحد
إلا نظرة الخائف المسترب ولكن هنا . ها هنا فقط لم تسع إليه ، بل
سعى إليها ! ولم تناوشه ، بل انقضى عليها ، أخذها بهاؤه عنوة أخذ الواثق

من ذات يده وملك يمينه ، فقاطا بلا تردد وبلا استئذان : تلك عروستى . . . !

بوركت الجدة وبورك مرضها وبوركت حياتها !
وأحست للجدة حبا ولطفة وإعزازاً . . . فأعلنت عليها الحب كما أعلن عليها الحب بسببها ، وصارت تطيف بها حانية وتسمر معها وتكاد تدللها ، عسى أن تستروح منها حديثاً ينفع غلتها عن حبيبها وعريسها العنيد !

ولكن لا خير قطعاً فى العجائز ! السن ذهبت برونقهن وعقولهن أيضاً ! لم يفتح الله على الجدة إلا بحديث هو لا شك من بعض خرف الشيخوخة الواهنة !

تبسمت الخبيثة وقالت فى بشاشة مموهة :
- أضاع نفسه ! يشاق اليوم الأبوة كلما رأى صبية ! ولو كان تزوج فى أوانه لكان أنجب مثلها . . .
فردت عليها العجوز الأخرى فى تواطؤ لا يكون إلا بين العجائز :
- من يدرى ؟ أليس أكبر من أخى شوقى ؟
- بلى ، أكبر منه ، ولولا تلك العقرب التى تزوجها أخوك لكانت له الآن بنات متزوجات وحفدة . . .

ولم تلق بالآ لحديث العقرب ، لأنها تصورت « العجوزين » عقرين تتآمران عليها بهذا الكلام المسموم ، تريدان لتوهماها أن حبيبها عجوز من سنهما وأنه أب لها لا قرين . . . !

كلام !

أين من حديثها المدخول حديث قلبها الصريح القوى الأمين . . . !
هو والله حبيبى . . .

وقامت متكاسلة تتمطى ، وانصرفت من الحجرة تشد خلوة عند
النافذة حيث القلة الحمراء والأفق الواسع ، وقد جنحت الشمس
للمغرب وملائت أصداء العودة من الحقول جو الضيعة .
ورانت عليها وحشة وحنين . . .

منى يارب تهدم الأسوار أمام نفير البطل الظافر ، فيأخذ الحب سبيله
وينطلق إلى بعيد . . . إلى بعيد . . . حيث لا تسمع لغواً ولا ترى
شيخوخة ولا غباء ولا لوماً !

واستهواها الأفق البعيد ، فسبحت بها خواطرها إليه . . .
سيكون لها بيت متألق كالجوهرة ، قصر أبيض ، فى بنيانه نقوش
كقصور السراة فى القاهرة ، بل أبهى ! فها هنا ستكون لى حديقة مترامية
فيها الشجر المرتفع والثمر البانع والزهر المونق الفواح والبستانى شيخ طيب
يفيض وجهه بالنور ، وتومض عيناه بالطيبة ، ويلهج لسانه بالدعاء لى
فى العدر والرواح !

وستكون أوقافى كلها فراغاً جميلاً . . . ما أجمل الفراغ ! أقطف
الزهر ، وأتشمم العطر ، وأخطر بين الخائل . . . وأصغى للبلابل وهى
تغنى كلما اشتبهت الغناء ، وتصمت كلما أشرت لها بيدى أن تكف !
وعلى الشرفة أستنى ويأتينى الخدم بالشاى الفاخر الذى حدثنى أبى

عنه حين حضر مأدبة ذات مرة في سميراميس ، أو يأتيني بعصير الفوكة
في كئوس من البللور الرقيق . . .

وتوقفت حورية فجأة عند هذا الحاضر ، وقضت حاجبها وتساءلت
برعولة : ألا يكون هذا هو نعيم الجنة التي وعد الله المتقين ؟

واهاً ! أين ذهب عقلي ؟ أليست جنة الحب هي هي جنة
الفردوس ؟ كلاهما لا لغو فيه ولا تأثيم ، وفي كليهما من النفس ماثلة
موتية بلا لفة ولا لوعة ولا حرمان !

والحبيب - الحبيب الغالي - يأتي في سيارته فتقابله مفتوحة
الذراعين ، وتنضو عنه ثوب النصب والعمل . وتسند رأسه إلى صدرها .
وتمسح على جبينه وعلى شعره وعلى صدره . فينسى التعب ويغفو وقبلها
يهدده على دقته . ويسهر عليه . . . إلى أن يفتح عينيه ، فيعانقها
ويقبلها ، ثم يأخذها في سيارته إلى نزهة مائعة ، وقبل أن تركب معه
السيارة يقول لها :

- أغمضي عينيك يا حياتي !

وتغمض عينها ويدق قلبها وهو يحيط عنقها من الخلف بشيء له مس
بارد ، ثم تفتح عينها ملهوفة تنضع في المرأة ، وتلمع عينها لمعاناً يضاهي
لمعان ماسات هديته النفيسة ، وتقفز مستديرة إليه ، وترتمي في
أحضانه . . .

إنه قوى وجميل وعني . . .

وتركب معه فخوراً إلى نزهة مائعة وسهرة رائعة بين الموسيقى ولغناء

والرقص والتمثيل . . .

ويحدث هذا كل ليلة . . .

ولم يخطر لها قط أن هذا الريف لا تتيسر فيه تلك السهرات ؛ فإن
الجنة فيها كل شيء ، ولا مستحيل فيها على أهلها ؛ لأن لهم ما يشتهون ؛
وتمطت كأنما أتعبت الرحلة ، ومشيت تقفز كالغزال إلى المطبخ تنشد
شيئاً تأكله ، فقد نهبتها معدتها إلى جوعها ، ولا ينبغي للسعداء أن يتركوا
الجوع ينقص عليهم نعيم الخلود . . .
وشعرت وهي تأكل أنها سعيدة ، وأن الطعام شيء رائع عظيم كأنه
من طعام الجنة . . . !

سا الفل !

لم يعد «سى عز الدين» إلى الدار في ليلة وصوله الأولى إلا بعد موطن . وبدا من منظره لأول وهلة أن صهره (شوق) أكرمه غاية المفهوم من الإكرام عند مثله ؛ فالواجب لا يتم إلا بعشاء تنحرف فيه إوزة سمينة ، وتقرب بين يديها زجاجة من الكونياك مختومة بالرصا ص آية على أنها «بحم رها» الذى عصرها وعثقها في بلاد الغال . . ! ثم تسئل النشوة إلى الدماغ ، فيزال الطربوش عن موقعه الغالى ، وتشعشع الذكريات مع شعشة الخمر في منادمة لا تتحرر أبداً من المحاملات والتنادى بألقاب المزايدة في التفخيم ؛ فإذا بالشارب سكران سكرين لا واحداً : سكر خمر وسكر ثناء وغرور . . وكلا السكرين نشوتهما في نهاية المضاف تفخيم الذات في عين صاحبها حتى يقول : «أنا جدع ، أنا بطل ،

أنا سلطان هذا الزمان ! . . . وسيان حدوث هذا برشفة من رحيق
أوجرة من مديح . . . أما الجمع بينهما فتمام المنى وقفة الانشاء . . .
وكان « سى عز الدين » يحتال في أمجاد تلك القمة وهو يتهادى مقبلاً
وقد أمال طربوشه إلى الأمام حتى كاد يمس حاجبيه ، وشعت من عينيه
دندنة ، ولما خفت لثقله زوجته رتبة انطلقت من فمه نحية متعثرة في
اندفاعها النشوان :

- سا الفل !

فتبسمت رتبة ابتسامة تجمع بين الإدراك والإغضاء ، والتوقع . . .
فتلك أمارات تعرفها مذ كانت له فيما مضى لليلة الجمعة من كل أسبوع
صبوة ، ولكن ذلك كان منذ سنين ، ثم تفاوتت الأيام ، ولم تعد للكأس
دورتها المنتظمة في حياة هذا الزوج .

ولو أن رتبة تعمقت نفسها في تلك اللحظة بفطنة واعية للمحت في
ابتسامتها تغيراً لم تعهده في ابتساماتها لتلك الصبوات قبل أن ينقطع بها
العهد ، ولأدركت فيها بوادر لم تستلفها إلا بعد أن قاربت السم .
ولم يعد خفاؤها مما يستطيع .

قديمًا كانت تستقبل تلك الصبوات من الباب بابتسامة إدراك ،
ورضا . لا تخلو من إعجاب وإعزاز ، أما الليلة فالإدراك قائم ، والتوقع
حاصل ، والإعزاز موجود ، ولكن الإعجاب اختفى وأخلى مكانه
لإغضاء ودود .

ولو كانت رتبة من ذوات الهواجس والوساوس في مراقبة خواطرها

وبوادرها لنفذت من تنك النادرة إلى مغزى عميق . ولاستشفت صدعاً
عريضاً في سدانتها لصنمها المعبود . . . !

فما كان قدماً لذلك الزوج في نفسها إلا الإكبر غير مشوب . لا ترى
في شمسها كلفاً ولا في هاتئ ثلثة . . . فإذا حتمت اليوم في الشمس وقد
شاب نظرتها الإغضاء فهي الآية على أن شمس الأمس زالت عن سمتها
وجنحت للمغيب . . . أو أنها انتكست فأمست سراجاً . وكل سراج
يؤذن - وإن طان المدى - بخمود . . .

ولو راها من ابتسامتها ذلك الريب لوجدت ما يعززه في حركاتها
وهي تنصوعه ثيابه . فما كان تميله وطيش حركاته عليها بعيد . ولكن
الجديد هو ما داخلها من الإشفاق الذي يكاد يشبه بالترابة في ترفقه
الشديد . . .

وضمها المضجع ، وعندئذ كانت حورية - لو تنهت - خليفة بأن
تكذب هواجس ارتياها - لو أن الريب داخلها - بما وجدت لصوته من
صدى ، وما أحدثته تلك اللبنة في كيائها من أشواق لم تكن تتوقعها .
وما كان لها بها في سالف الصبوات عهد .

إنها لتجد في نفسها مبادأة تربو على الاستجابة السائبة . . . فإذا
انطوية طالبة ، وإذا مدعنة راغبة . . .

وهذأت الأنفاس بعد تلاحق . وهمدت الجوارح بعد توثب .
ووجدت الدهشة المسرورة سيلها إلى لسانه فقال من الأعماق :
- ما كان أطيب شراب الليلة ! . . . يورك في أخيك ! . . .

ووافقته بلسان الحال لا بلسان المقال . . . فما عرفت لما عراها هذه
الليلة سبباً معقولاً إلا ذلك العامل الظاهر من عوامل الإثارة للحواس ،
وأغمضت عينها تشد نعاساً عميقاً هائلاً طالما تعودته من نفسها في سالف
الأيام . . .

واستغرق هو في الغبط ، أما هي فاستعصى عليها ما كان من قبل
دانيا بغير عناء أو وناء . . .

وما كان غبطه ليقلقها . . . وما فارقه ربحاً من الطول بحيث يقطع
الإلف ويمحو تواتر العادة ، فما بالها الليلة وقد أوفت من نشوتها على كل
غاية لا تجد إلى النوم سبيلاً . . . ويستجد لها قلق لا تفر معه على
جانب ، ولا تستريح لوساد ؟

واستغرقتها نفسها في ليلتها ثم في أيامها الخاليات . . . وتراءت لها
معطيات حياتها كلها في ضوء جديد . فإذا لها نسب جديدة تغير من صيغتها
ولونها وما كان لها من مفهوم . . .

أشواقها التي نبتت « مع » الصبوة خيل إليها أنها نابتة « من »
الصبوة . . . وهو وهم يغمض إلا على عقل متيقظ حذر ، وأين هي من
ذلك ؟

أين هي من التفرقة الدقيقة بين متلازمين في زمان تلازم العرض
الطارئ لا تلازم الأسباب والنتائج ؟

كل ما خطر لها أن أشواقها النابتة « مع » الصبوة نبتت « من »
الصبوة ، وأدهشها أن ترى الصبوة أربت على قصارها ، فإذا الأشواق

لا تحمد كعهدا خمود الشبع والتخمة . . . وما درت أن أشواقها الليلة
من نوع آخر ، أشواق نفس لا رغبة حس . . . وأشواق النفس ليست
مما يدركه بالطعام انقضاء ، ولكنها كالنار تقوى بالوقود وتزداد اشتعالاً
وضراً .

وهذا القلق ؟ أعساها تريد مزيداً من هذا الذى أصابت منه فوق
ما كانت من قبل تصيب ؟

والفتفت فى الظلمة إلى الراقد بجوارها على الحشية التى وسدت أرض
الحجرة أمام تلك الأريكة التى باتت فيها منذ حلت دار الأسرة ، وتنبت
لنفسها وهى تتباعد عنه تباعد الصادفة كأن شيئاً فى دخبنتها وراء تلك
الأشواق التى تقلقها قد انتهرها فى ضيق وتبرم حتى لا تخلط بين طبيعة
تلك الأشواق وزاد هذه المائدة التى لها هذا الغطيط ، وهذه الريح التى
يختلط فيها ريح الخمر بريح العرق الناصح . . .

فطنت لهذه الحركة من نفسها ، وما كان الغطيط والعرق ، بل
الخمر - حين كانت للخمر فى حياته دورة - مما تضيق به أو تصدف
عنه ، بل كان كل ما يتصل بهذا الزوج له عندها محل مرموق وإعزاز
يختلط به التيب والإكبار . . .

ما بالها الليلة تجمع بين الرغبة والصدود وبين الاستطابة
والخمود . . . ؟ أى جديد طراً عليها ؟ أى دخيل شاب اطراد حياتها فى
مداها المعهود ؟

وتقلبت - وهى تجتهد أن تبعد عن التفكير فى حالها - عسى أن يهدأ

ما بها من حين غامض لا نجد له تفسيراً . . .
لعله طول البعد عن الزوج في كنف الأم وفي مهد الصبا الطاهر
البريء من مطالب الأجسام ، ثم كان التبديل . . . !
وداخلتها قشعريرة خوف وقد تذكرت ما تعرضت له أمها من خطر
الموت لولا لطف الله وعناية زكى . . .

وزايلها الروح وابتنست في ظلمة الليل لأول ليلة قضتها في هذه
الحجرة على هذه الأريكة ، ومدت يدها تتحسس كسوة الأريكة
« المزركشة » بالوشى ، وغمرتها سعادة مطمئنة مشرقة . . .

ووجدت نفسها تسترسل في استرجاع تلك الأيام ، وما حفلت به
من دقائق التفاصيل من أفانين هذا الإنسان الوفى النبيل الفذ في جميع
خلائقه الذى استغلقت حقيقة نفسه الرائعة في إنسانيتها على أفهام البلهاء
إلا هي . . . !

وشاعت في نفسها الراحة ، وشاع الاسترخاء السعيد ، ووجدت
نفسها ترتق للنوم وعلى شفيتها ترف ابتسامة وضيئة ليس فيها من القلق
الذى أحسته منذ قليل شائبة تريب صفاءه العميق الذى شمل كيائها
جميعاً ، فإذا هي في عزلة مأنوسة لا وحشة فيها ، وإنما هو الاستقلال
والاكتماء . . .

واحتواها الكرى إلى مطلع الصباح . . .

المأخوذة

فتحت رتيبة عينيها وقد نفذت الشمس من وصاوص النافذة فلأت
الحجرة ، وتقلب فوجدت « سى عز الدين » ينظر إليها نظرة باسمة ،
فأثقت عليه تحية الصباح كالعتاد وهى تغض بصرها أمام ما فى نظرتة من
تساؤل مرح معربد كأنه يسألها : كيف الحال ؟ وما رأيها فى ليلتها وقد
أظهرت فيها من الشوق إليه ما أزهاه . . . !

- صباح النور . . .

وجمع فقه وهو راقد على ظهره كمن يشير إليها أن تقرب ليقبلها ،
فدنت منه بوجهها ، ومنحته صفحة خدها فى عجلة وسلبية لا تتم على
نشاط شديد أو احتفاء عميق ؛ وإنما هو انصياح ، ثم هبت واقفة لترتدى
ثيابها وأمام نظرة الدهشة التى ارتسمت على وجه زوجها قالت :

- يا ترى أمى صبحت ازيبا . . . ؟

- ما حطت فيها قالب . . . نفدت والله الحمد . . .

- ذا الدكتور يقول التفاهة أهم من العيا . . . ولساها ضعيفة . . .

ولم تلبث رتيبة طويلاً عند أمها ، بل خطفت كلماتها خطفاً ، وأسرعت تغسل وجهها ، وتمشط شعرها وترجله ، ولم تنس أن تمس عينها بشيء طفيف من الكحل لم تفت فطنة أمها ، فتبسمت تبسم الفاهمة ، وداعبت مخيلتها الواهنة صور قديمة كانت فيها سكتاً لزوج تلوذ به ويلوذ بها ، وتهدت تدعو في سريرتها لابنتها بالهناء والرفاء ذاكراً لها بالفضل والشكر ما تجشمته من البعد عن ذلك الزوج ، فلا عجب أن تترين له في ليلته ونهاره اللذين سيقضيها معها !

ولم يفت « مى عز الدين » ذلك الكحل وتلك العناية في الزينة - في حدود ما تعودته من احتشام وبعد عن الغرور والطلاء وقد جلس أمامها إلى مائدة الإفطار ، وقدمت بهانة بين يديه الزبد والقشدة وعسل النحل والجبن القديم والحبز اللين ، فرفت على شفته ابتسامة مأكرة ، ولكنه لم يزد على أن قال بلهجة ذات مغزى :

- والله سلامات . . .

فأغضت وهي تجيبه :

- تسلم .

وتذكر فجأة ابنته فسأل عنها . فقالت له رتيبة : إنها في الحمام منذ استيقظت ، وإنها وجدت الحمام معداً بمائه الساخن . بعناية بهانة وفطنتها

الفطرية ليكون في انتظارهما متى استيقظا ، فحسبت البنت أن بهانة أعدته لها ، فاستأثرت به وأطالت . . .

وبرزت حورية من الحمام في تلك اللحظة وقد احمر جلدها من كثرة الحك ، ومشطت شعرها وعقدته كعكة في مؤخر رأسها ، فبدت أكبر سناً ، وباعد ذلك العقص بينها وبين السمة العلامية التي تغلب على لداتها من المراهقات ، وأقبلت تشنى وقد ثمل عطفها من حرارة الحمام ، ومالت فوق أبيها فقبلته قبله الصباح ، فتشمم الهواء وقال مداعباً :
- الله ! ما أطيب رائحة الصبا . . . !

فقالت في اختيال لا أثر للخجل فيه :

- مرسيه . . .

فنظر الأب إلى أمها وغمز بعينه ، وأتم إفطاره ريثما أعدت بهانة الماء الساخن لحمامه ، فنهض إليه ، ثم ترك الحمام لزوجته ، فإكان من عادتها أن يستحمها معاً ، وارتنى ثيابه وأخذ يحسنى القهوة .

وخرجت رتيبة من الحمام ، فناداها لتدرك قهوتها قبل أن تبرد ، ولكنها ألقت نظرة على الساعة العتيقة المثبتة في الحائط ، وقالت بوجل :

- أليس ثيابي أولاً ؟ فقد يدخل الدكتور بين لحظة وأخرى . . .

وأسرعت في ارتداء ثيابها ، ولم تنس أن تمس عينيها بالكحل مرة أخرى ، وتضع شيئاً من العطر ، وعرجت على النافذة لتطل منها على الطريق ، فوجدت هناك حورية وقد ارتدت ثوبها وأحسن زينتها تكتسح الأفق بعينيها كأنها طائر البحر يفتش عن قنينة من صغار

السماك ، فقالت لها :

- لم تفطرى بعد . . .

فالتفتت إليها الفتاة وقالت بلهجة تفيض غزلاً ورقة :

- الهواء يا ماما . . . هواء الصبح العليل . . .

ثم قفزت كالغزال متجهة إلى المائدة عندما نهبها أمها إلى وجوب الإسراع في رفعها قبل أن يحضر الطيب ، وتعلت رتبة بجرعة ماء شربتها من القلة ، وكانت بها بقية ماء من رشح الليل الطويل ، فذهبت بها وملأتها ، وعادت بها إلى النافذة . . .

ولم تكن في حاجة إلى مزيد من التعلات بعد ذلك للوقوف في النافذة ؛ فقد أبصرت سيارته مقبلة ، ولكنها لم تنبه لذلك زوجها ، بل تجاهلت الأمر ، وابتعدت إلى حجرة المائدة فارتشفت فنجان القهوة البارد جرعة واحدة وهي جالسة أمام زوجها الذي أخذ يروى لها قصة التقائه بصديق قديم عند أخيها شوق ، وكيف دعاه هذا الصديق للغداء اليوم ، وحلف بالطلاق ، وكيف أنه سيذهب أولاً فيخلق شعره وذقنه ، ثم يصلى الجمعة مع أخيها والصديق ، وبعد ذلك يذهب ثلاثتهم إلى بيت الصديق لتناول الغذاء ، وقد وعدهم بوجبة رفاق وكسكسي وأوزتين سميتين . . . !

ولم يسترسل في الحديث ، لأن صوت زكى جلجل في الفناء الداخلى من أسفل ، فهبت رتبة واقفة في دهشة متفنة وقالت :

- يوه . . . ! الدكتور وصل . . .

والتفت «سى عز الدين» بسرعة فاخترطف طربوشه ووضعها على رأسه ، ثم سوى عقدة رباط عنقه بيده فى حركة تلقائية ، وزرر سترته وتقدم من رأس السلم ليستقبل القادم ، ورفع عقبرته بعبارات الترحيب . فلم يلتفت إلى وجه زوجته التى أسرعت بعد النظرة الأولى إلى وجه زكى ، فدخلت على أمها وتشاغلته بها ، ولم يلتفت إلى حورية التى تسمرت فى عتبة حجرة المائدة وقد زابتها شجاعته وتفكيرها كله ، وصعد الدم إلى وجنتيها وأذنيها ، وغضت بصرها ، ولا شئ يدور برأسها حتى ذلك الحاضر الذى ألح عليها طيلة الصباح ومعظم الليل : ترى هل يفتح الدكتور حديث الزواج أمام أيها ؟ . . . إن ذلك الحديث يكون ولا شك أكثر جدية وأقرب إلى الرسميات المطلوبة فى هذه الأمور . . .

وكانت فى ريع الساعة الأخير متوجسة أن يخرج أبوها من الدار قبل وصول زكى ، ولهذا شغلته بحديث مفكك متعثر ، ولكنه متلاحق وهى جالسة تفطر ، واستبطأت قدوم زكى حتى خالته لن يحضر ، وداخلها أنه ربما ندم ، أو أثر الانتظار لصغر سنها ، فلم يرق المسألة داعياً للاستعجال . فلما حضر فعلاً طارت هذه الأفكار كلها من رأسها ، ووقفت كالصنم مسئولة الحياة والعقل والحراك كأنما كل وظائف حياتها انتقلت إلى ضربات قلبها . . . !

وتوقعت أن يهتف باسمها بمجرد صعوده ، لأنها قدرت أن عينيه ستدوران فى أرجاء المكان بحثاً عنها ، وأنه سيشعر بوجودها من قبل أن يراها بما فى قلوب المحبين من حساسة خارقة ، وتوقعت أن يكون فى أبهى

زينته ، وأن يكون حضوره خصيصاً شوقاً إليها ، لأنه لم يَمِ طول الليل مضطرباً كاضطرابها . . .

ولم تسمعه يهتف باسمها ، بل رآته مشغولاً في تبادل تحيات طويلة مع أيها الذي الخنى حتى يكاد يمس يد الطبيب برأسه وهو يكرر عبارات التشرف العظيم وحصول البركة ومنتهى الشكر . . .

وهاها أكثر من كل شيء أن فارسها اضطرب لتلك التحيات ، وظهر عليه الحجل ، وزايلته طلاقته وذلاقته ، وصار يكرر بلا انقطاع كلمة :
- أستغفر الله . . . الله يحفظكم . . .

وقد أشرق ببصره ، وأنشأ يسأل عن جدتها في رزانة وتحفظ . . .
كأنه لم يحضر إلى هذه الدار اليوم إلا من أجل تلك العجوز المريضة . . .
وخشيت أن يعبر بها من غير أن يلتفت إليها فيقتلها ذلك التجاهل قتلاً ، فأسرعت تتوارى داخل حجرة المائدة حتى لا يستطيع أن يراها ؛
وبذلك يكون له لديها ما تتعلل به من عذره .

ودخل الرجلان حجرة المريضة مارين أمام حجرة الطعام ، وأغلق الباب ، ودخلت القهوة على يد بهانة بعد قليل وهي واقفة في مكانها بركن حجرة المائدة تعض شفتيها حتى لا تبكى غيظاً وكمداً وتوجساً . . .
إلى أن سمعت صوت أيها يناديها باهتمام عظيم ، فجن جنون ذلك القلب الفتى ، وتشبث بالركن مذعورة مشفقة على نفسها من الساعة الهائلة ،
ساعة الحسم الكبرى في حياتها . . . ساعة الخطبة . . . ووقعت سعادتها العظمى على قلبها الغض وقع النوازل المصميات . . . !

ورأت أباهما يفتش عنها إلى أن عثر عليها ، فجذبها من يدها متعجباً
وهو يقول بلهجة التائب :

- عيب ! تعالى سلمى . . .

ولما دخل الحجرة قال كالمعتذر :

- مكسوفة تسلم على عمها الدكتور زكى بك . . . إنه ليس
غريباً . . . سلمى يا بنت . . .

ومدت يدها وهى تتراجع إلى الخلف برأسها المنكسر ، وضحك
زكى وسلم عليها . وجذبها إليه وقبل خدها ، فكاد يغمى عليها ، ودس
فى يدها قالب الشكولاتة الكبير . . . فأخذته وأسرعت هاربة .

وخارج الحجرة سمعت قهقهة ، فذابت خجلاً وغيظاً من نفسها
للتلك النكسة الطفلية التى أصابها فى الموقف الذى كان يجب بالذات أن
تبدو فيه ناضجة وأهلاً للمناسبة العظمى . . .

وصدمتها كلمة أبيها وقد تذكرتها الآن : « عمك » . . .

- عمى ؟ ما هذا الكلام ؟ أهكذا يقال عن عريس وخاطب ؟
وأطبقت فيها المغفور ، وابتمت فى مكر وقد أدركت بخدائها
ما هناك ! إن هؤلاء الآباء لهم عقلية ساذجة جداً بالنسبة لأعمارهم ،
فهم يتخيلون مثلها طفلة ستخاف من كلمة عريس وزواج ، ولهذا تحايل
بسذاجة ليدخل عليها الطمأنينة مؤقتاً ، ولكن على من ؟ فلتتركه على كل
حال « فى عماء » كى ينعم بوهم حصافته ، فلا شك أنه يعد الآن خطة
محكمة لتمهيد ذهنها للنبا الجلل ، ولو درى المسكين لوفر على نفسه المجهود

كله ، ولعلم أنه الشخص الوحيد في الدار الذي لا يعلم أنها فاهمة وراضية بل متلهفة . . . !

وفضت الشكولانه وراحت تأكلها وهي في قمة السعادة . . . وجعلت تنصت على الحديث ، فلم تفهم منه إلا مجاملات عادية ، وسمعت أباهما يتشدد في دعوة زكي للعشاء تلك الليلة ، ولكن الطيب اعتذر في خجل وحزم . . .

وفرحت ، فتلك الدعوة تؤكد المؤامرة ، فالخاطب عادة هو الذي يدعى للعشاء ليلة الفاتحة . . . صحيح أنها لم تسمع تلاوة الفاتحة . ولكن ليس مستحيلاً أن يكون ذلك قد تم بصوت خافت حتى لا تسمع . . . وتنتهت لصوت قيام أبويها والطيب ، ومغادرتهم الحجرة ، فأسرعت تحق سرورها حتى لا تنفضح حالتها لأبيها ، وتوارت داخل حجرة الجلوس . . .

ومن النافذة أبصرت خلسة والدها يركب السيارة بجوار زكي فرقص قلبها ، وأيقنت أنها سيفتقان اليوم ولاشك على جميع التفاصيل ، وربما شهدت الليلة أوغداً خطوة جديدة لتمهيد ذهنها ، بل قد تكون تلك الخطوة هي هدية الشبكة الثمينة بالذات . . .

وتخيلت زميلاتها اللواتي ظننها «مفعوسة» ، بل تخيلت أبلواتها وقد أكلتهن الغيرة ، وأما مسألة السن فليس تذليلها بالعسير على طيب يمرر شهادات التسنين للفتيات كل يوم كي يتحايثن على القانون الجائر ، فلاشك أنه متلهف كلهفتها على اجتماع الشمل . . .

أنت مهجنى

دفع زكى الباب بقدمه ، ودلف من حجرة مكتبه بمسشفاه إلى حجرة استراحته الخاصة ، وكان يحفف يده بمنشفة بيضاء من التيل . فرماها من يده فوق مقعد من الخيزران ، ووقف يحيل نظره في الحجرة وقد ضيق من فرجه عينيه كأنه لم يعيش هاهنا بين هذا الفراش الأبيض الذى يشبه أسرة المرضى في حجرات المبنى الأخرى وهذه المائدة المستديرة الصغيرة الحجم ومقعدي الخيزران والكرسى الأسبوطى ذى الوسائد البنية أكثر من ثلاثة أعوام ، ومع هذا فهو يتفحص هذه الأشياء كمن يراجع نفسه في جدارتها بالمكان الذى تحتله ، أو يراجع نفسه في مكانه بينها . وهو الذى كان يعاملها في ألفة كأنها ذراعاه أوفتحة فه . . . حتى الأطباق التى على المائدة لم تسلم من هذه النظرة ، مع أن الألوان

التي عليها لم تكد تتغير في كل يوم من أيام السنوات الثلاث : ست أضلع
ضأن صغيرة مشوية وأرز وبيض محمر وسلطة خضراء وخضر مسلوقة
(سوتيه) قد تكون بازلاء في يوم ، أو خرشوفاً في يوم ثان ، أو كوسة في
يوم ثالث مع شيء من فاكهة الموسم .

أثاث لا زخرف فيه ولا ترف ، ومائدة لا افتنان فيها ولا سرف هي
أقرب إلى التكشف منها إلى أي صفة أخرى .

ومط شفته السفلى ببطء ، ثم مد يده إلى بيضة دسها في فم الواسع ،
وشرع ينضو عنه معطفه الأبيض ويرميه فوق المقعد الأسبوطي ، وجلس
بعد ذلك إلى المائدة فواجهته مرآة دولابه الصغير ، فأخرج لصورته لسانه
وقال بصوت مسموع :

- الأكل أكل أيها الولد الأحق ! لابد أن تأكل لتعيش ! ياله من
اكتشاف نحتاج إليه جداً في بعض الأحيان لتبرير ما لا يحتاج إلى تبرير !
ورفع ضلعاً من أضلاع الضأن بيده ، ورفعها إلى فم بحركة نحد
لصورته في المرآة ، ثم هس مشجعاً لما رأى «الآخر» يقلده :

- تعجبنى ! هكذا ينبغي أن تفعل : رغبة أو لارغبة ، شهية
أولا شهية . . . لابد من الأكل شئت أو لم تشأ . . . فلتشأ إذن ، فذاك
أحجى وأحصف !

وسمع مقبض الباب يتحرك ، فحول عينيه إليه وقد ضاقتا قليلاً كما
ضاقتا وهو يدخل الحجرة منذ برهة يسيرة ويتفرس ما فيها ، ورأى من
كان يعلم أنها ستدخل كما تدخل كل يوم . تفتح الباب كما تفتح كل يوم في

الساعة الثانية بعد الظهر ، على أثر انتهاء دورة العمل الصباحية في المستشفى .

وأغلقت « مهجة » الباب وراءها في خفة ، واتجهت إلى المرأة تسوى شعرها بيديها بعد أن نزعَت غطاء الرأس الأبيض ، وتفرست في قوامها المليء قليلاً بشيء من التغزل ، ثم التفتت إليه وتخللت شعر رأسه بيدها ، كما تفعل كل يوم ؛ وككل يوم وضع يده اليسرى على ظهرها أسفل الخصر ، وراح يتحسسها وهو ينظر إليها في المرأة ، فالت برأسها إلى اليسار في تدلل وقالت وهي تلوح بسبابنها في الهواء :

- ممنوع المرور ! السيافور مقفل . . . !

ورفع يده في تحاذل هادئ من غير إلحاح ، وتهد وهو يقول بصوت خافت :

- أنت مهجتي !

ولو كانت مهجة ممن يفطنون إلى ظلال الأصوات للمحت في تنهده وكلمته معنى السأم والارتياح للضوء الأحمر الذي يحمله ذلك السيافور المقفل . . . !

وأقبلت على الطعام بشبهة شديدة ككل يوم ، وأتم هو وجبته المعتادة في سرعة أشد من كل يوم ، وجعل يسقط نوى البلح من فمه على المائدة ، فيصطك بها في نقرات متباعدة وهي لا تفطن إلى ما في حركة لفظه البطيء الخائر للنوى من بين شفثيه من ملالة وخمود ، وهو يفكر في أمس وأول أمس وما قبل ذلك . حين لم يكن ذلك السيافور مقفلاً .

وكان المرور مباحاً ، وكان يمر ، وكانت قعقة العجلات أكثر كثيراً من اندفاع القاطرة بقوة البخار ، والسائق مع هذا لا يريد أن يكشف ناظر المحطة والركاب أن قاطرته ليست كمهدم بها منذ ثلاث سنوات . . . ! وتهد تهدأ أشبه في حس مهجة بتهد التحسر ، وتخير لحظة ماذا يقول ، أو على الأصح ماذا يجب أن يقول ؟ وإذا التليفون الأبيض يرن بجوار الفراش وهو التليفون الداخلى ، فتركها ترفع الساعة ، ولما قالت له :

- رقم ١٦ أفاق من التخدير وأخذ يتقيأ . . . تمطى وقال لها :
- اذهبي أنت . . .

وانطلقت - برغم امتلائها - كالقنبلة تلك الأرض بخطواتها ، ونهض هو إلى الدولاب الصغير ، وأخرج منه زجاجة ويسكى صب لنفسه منها قدحاً ، ثم أشعل سيجارة وجلس يفكر . . .

لقد وجد نفسه يعاشرها منذ خمس سنوات. دخلت في حياته من غير دعوة سابقة ، بل إنه كان يسميها «الجاموسة الحسنة» لسمرتها المفرطة التي تجعل بشرتها أشبه بالشيكولاتة عندما رآها لأول مرة بعد عودته من إنجلترا وتعيينه في المستشفى الأميرى . ومع ذلك كان وتر معين يئن أوتار سريره يحن إليها ، وفي مرة ضحككت لنكتة لاذعة من نكتة وقد فرغا لئولهما من إجراء جراحة نثرت الدم على ملابسها وقناعي وجهيها . ومالت عليه مترنخة وهى ترمقه بعينيها فى غزل سافر ، فجذبها إليه وانقض على فيها ، وتركها نفسها كالحرقفة بين يديه . . . وحاول أن يوقف نفسه

عن الاندفاع ، ولكن القاطرة خضعت لضغط البخار وتجاهلت
السائق . . . !

ولما سوت ثيابها من غير اضطراب هرش رأسه وقال لنفسه :
- صحيح فلاح ابن فلاح في دمه حب «الطين» ، يلهظ المش
لحطاً ، ويرد حرقان لسانه وشفته بفحل يصل إلى أن تتورم اللثة
والشفتان !

ونظر إليها وهو يغالب استهائته بأكلة المش بالبصل التي أصاب منها
فوق ما كان يقدر ، حتى لا تقرأ ذلك على سحته ، ورآها تطوق عنقه في
تدلل ، وتقبل فيه قبلة مثل رشفة العصفور ، وتنقلت مولية من الحجرة في
رشاقها ذات الوزن الثقيل .

ووجد المش بالبصل أمامه في كل يوم بلا طلب ولا مناقشة ،
وهز ابن أبي زعبوط كتفيه ومط شفته السفلى ولم يتمنع ، وما حيلته ودمه
الفلاحي يجري فيه حب الطين والمش والبصل .

ودخلت في كل زاوية من زوايا حياته حتى كان يسميها أحياناً
«البقة» ، لتسللها إلى كل شق بلا استئذان ، ولكنها بقعة هادئة تمص شيئاً
من الدم من غير إفراط ، وتشتري لنفسها الغوايش والأساور ، وتودع
صندوق البريد ما تيسر ، وفتحت لأبيها ساعى البريد السابق دكاناً للبقالة
يجلس فيه بالميجاما الزفير المقلمة أو الكستور البيكة وعلى رأسه طربوشه
وهو مزهو بهذا الارتقاء وبالتغيير الذي رفع عنه لعنة اللون الأصفر الكالحي
في ثيابه الرسمية الغابرة . . . !

واكتشف الجيران البقي ، وكتبوا شكاوى مجهولة إلى الوزارة ، ونقلته الوزارة إلى الصعيد ، واستقال منذ ثلاث سنوات ونيف ، وافتتح هذا المستشفى ، واستقالت البقية من الميرى ، وعشتت معه هنا من غير تردد . . .

إنه طول حياته يأكل ليعيش ، وبهمه ترتيب وجباته البسيطة في نظام دقيق قلما يتغير حتى يخلى ذهنه من التفكير في صده ، وينصرف لوجوه حياته الأخرى التي لا غنى فيها عن التفكير ، . . وبحسبه أن تكون المائدة مغذية نظيفة مضمونة الإعداد في أوانها المعلوم أو المرتقب وإلا فإنه يأكل «الحاضر» متى جاع .

وهو يقبل على مائدته البسيطة هذه في استمتاع موقوت ، وشهية سليمة تنبئ عن صحة وعافية ، ثم يعود إلى حياته ونشاطه .
وكذلك هي : مائدة أخرى نظيفة غير مغرية ولا مبهرجة ، ولكن في حاجته الطبيعية إليها ما يكفي إغراءه بها في أوانها ، يقبل عليها مستمتعاً حتى يصيب شبعه ، ثم ينصرف إلى حياته ونشاطه لا يفكر فيها إلا حين تدور الدورة ويأتي الأوان ، وبحسبه أن يعلم أنها حاضرة وأنها خالية مما يشوب ويكدر !

وقد استطاعت مهجة أن تريح مهجته من عناء الاهتمام بمائدته ، وحمد لها أنها أعفته من التفكير مكراها في الزواج لتوفيرهما كما يصنع معظم الناس ، فاستراح إليها واطمأن .

ولذعت يده السجارة التي انتهت وهو لا يشعر بها ، فرماها من يده

في ضيق مع أنه كان قد أشعلها منذ هنية متلذذاً بنكهتها ، ونهل من أنفاسها في شوق . . .

وتذكر زهده منذ أيام فيها - في مهجة - فهل ترى صار أمرها إلى ما صارت إليه هذه السجارة ؟

- شيء سخيف . . ولكن هذا لا يمنع أن يكون حقيقة واقعة ، فالواقع لا يتقيد بقواعد الظرف والسخافة والجمال والقيح ، ألسنت هفوت إليها وهي قبيحة ، « جالوص » من الطين ؟ وكان ذلك سخافة أو إسفافاً ، ومع هذا فهو حقيقة . . . ! طبعاً طبعاً سوف يزعجها أن تكتشف أنها سيجارة استنفدت أو مائدة نصبت فيها يتابع الاستهواء للغدد اللعابية ، ولكن متى كانت هذه هي الحقيقة فلا حيلة لي ولا لأحد في ذلك !

إنه لم يؤمن يوماً من أيام حياته بالأوهام ولا بالتكلف ولا بالزيف والخداع ، ولم يتحدث يوماً في أمر الزواج ، وكان السكوت من الطرفين عن حديث الزواج تواطئوا ضمناً على استبعاد هذا الموضوع . . . والغرام ! حتى الغرام نفسه لم يكن موضوع بحث بينهما في أى وقت ، وكان قصاره أن يقول لها :

- أنت مهجتي ! مهجتي أنت !

وهو يتحسس بكفه في استطابة ردفها الكرويين الصلدين ، وكان يعنى ما يقول حقاً ، فهي تتيح لمهجته الراحة من شواغل هذه الضرورات العضوية والحوية ، فهي إذن سياج مهجته وروحه الذى يحميه من القلق

والتخطيط والاهتمام المزيج بتلك الضرورات المحتومة .
ولكنه يجد نفسه الآن فى قلق وفى قلق شديد ، حتى إنه لا يستطيع
أن يستقر أو يقبل على مائدته المهدودة . . . !
ولكن ما حيلته ؟ ماذا يستطيع أن يصنع ؟ وكيف يمكن أن يتعلق
بهم ، إن لم يكن بمحال ؟
أليست ذات زوج وذرية ؟
وقطب حاجبيه فى ضيق ، وإذا الباب يفتح ، وتدخل مهجة باسمه
فى إغراء ، فتبسم فى جهد ، وقال لها متعللاً ببقية من الأمل فى إنقاذ
الموقف :
- أهلاً مهجتي . . .

ومالت عليه تدغدغ أذنه بأسنانها الكبيرة الحادة ، وكان هذا يشيره ،
فقال لها :

- وبعد ؟ وتلك الملعونة ؟

فهزت رأسها وقالت فى خبث مفر :

- كنت أضحك عليك ! أردت أن أغيظك . . . وكنت واثقة أنك
ستخضع ! فأنت أشد رجال العالم شروداً ، ولا تنتفع بطبك لتدرك أن
ما يحدث كل شهر لا يمكن أن يحدث كل سبعة عشر يوماً . . .
وجلس فى حجره ، ووجد نفسه متورطاً أمام ناظر المخطئة وأمام
الركاب - أن يدفع قاطرته دفعاً للمرور وقد أضاءت جميع المصابيح
الخضراء فى إلحاح فوق السيافور المفتوح . . . !

ولكن المائدة الممدودة أقنعت - وهو يكاد ليلتلع لقيات منها بمشقة
شبه فاشلة وبتعثر شديد - إنه شبع منها ، وبلغ ما فوق الشبع لحد
المحاجة !

ولما أدار لها ظهره لينام - وقد انطلقت كعادتها إلى الحمام - كانت
المراة تملأ فيه المطبخ إطباقه الحنق بطعم الرماد الخشن المحترق . . . !

الريح !

استيقظ زكى من ضجعة القبولة وفي رأسه «وش» كأنه نشيش قاطرة تنفث ما بها من البخار وهي تلهث واقفة ، تنشد الماء في إحدى المحطات بعد سفره طويلة مجهدة . . .

ولم يمد يده إلى الجرس ، بل فرك عينيه ونهض بنفسه يروى ظمأه الملح بكأس من الويسكى ، ثم جلس على سريره ، ومد شفتيه السفلى إلى الأمام وهو يحملق أمامه ويهز رأسه كأنما يريد أن ينفض عنه الصداع الذى يطرق جدرانه من الداخل طرْقاً ملحاً :

- مم ! يظهر أنه آن الأوان . . .

وتطلع إلى السماء من خلل النافذة ، فوجدها صافية رائعة ، فأدار رأسه ونظر بجنب وجهه إلى السماء باستنكار عابث وقال :

- أما وأنت قليلة الذوق حقاً ! طبيعة ليس عندها دم ! في منتهى الروقان حضرتك ، ولا كأن عندك خبر « بالقمطير » الذى فى دماغى وصدرى ! يظهر يا ابن أبى زعبوط أنك شىء هائىف جداً فى هذا الكون الكبير . . ! ومع هذا فأنت لا تستطيع أن تنظر إلى سمالك بعين السماء التى لا يعينها أمرك ! أنت مضطر يا ابن أبى زعبوط أن تواجه عاصفتك التى تتجمع فى سمالك الصغيرة هذه . . .

ورمى صورته فى المرآة بنظرة من تحت حاجبيه تجمع بين التذليل والتحفز وهو منكس رأسه يحك ذقنه بيده ، ويتحسس بوادر لحيته . . .
- عاصفة أولاً عاصفة . . ! لا بد أولاً من الخلاقة ، ثم الحمام ، ثم بعد هذا أهلاً بالزوابع كلها . . .

وانصرف إلى تنعيم ذقنه كأن لا شىء يشغله وراء هذا التزين ، ودخل الحمام وجعل يبدن بصوته « النشاز » ، ثم ارتدى بدلة مكوية وانتقى رباط عنق أصفر اللون ، ونظر إلى هيئته فى المرآة وقال :

- يا أصفر يا صففر فور ! ولم لا ؟ أليس الأصفر هو اللون الذى يستخدمونه فى « السبافور » ، وسطا بين الأخضر والأحمر ؟ ليكن إذن !
لعنة الله على الأحمر والأخضر معاً !

- أتكلم نفسك مرة أخرى ؟

وانتنفض ينظر إلى مهجة التى وقفت خلصة فى فرجة الباب تضحك منه كعادتها كلها ضبطته يكلم نفسه ، وما أكثر ما كان يفعل ! واعتدل إلى المرأة يلقي على نفسه نظرة أخيرة وهو يقول لها مشيراً إلى صورته :

- وما حيلتي ؟ هذا الآدمي دمه خفيف ، وذكي ، فلا أملك نفسي - مع أنه أخرس أبكم - أن أجاذبه الحديث كلما رأيته ! . . .
وغمز لصورته بعينه كمن يتواطأ على كتمان سر ، ومر بها عند الباب ، فلم يقبلها كما كان يفعل ، بل قرص طرف أنفها بين سبابته ووسطاه بحركة كماشة جاءت أعنف مما كان ينوي ، حتى إنها صرخت ، فدق صدره بيده - يقلدها - وقال بلهجة نسوية :
- يقطعني !

وانفلت إلى سيارته ، وانطلق في طريق العزبة . . .
ولم يطل به الانطلاق ؛ لأنه تذكر حورية ، فعاد أدراجه إلى أكبر محل في المدينة فاشترى لها صندوقاً معدنياً به شكولاتة فاخرة ، واستأنف انطلاقه إلى خارج المدينة . . .

وعلى الطريق الزراعي تمهل كأنه يريد أن يرى المزروعات على جانبيه ، ولكنه لم يكن يرى شيئاً من كل هذا الذي حوله على الأرض ولا مما فوقه في السماء ؛ لأنه شغل بسائته التي في أعماقه ، وما يؤذن به أديمها « القمطيرير » من عاصفة عاتية .

وكان ولوعاً بكلمة « ققطيرير » ، ويتذكر بها دائماً « الشيخ زيان » فقيه العزبة القديم ، فلا يغالب الابتسام لما يحف بتلك الذكرى من فصول الشيطنة التي استوجب بها من الشيخ الضرير لقب (الزنديق) !
وهز رأسه ساخراً ، وقال لصورته في مرآة السيارة :

- والله حاقت بك دعوات الشيخ المسكين أيها الزنديق ! أين تريد

أن ترج بنفسك أيها الأرعن الطياش ؟ أما وجدت امرأة تحبها إلا هذه «الجددة» ، ذات الزوج الذى يسير كأنه يحمل قرأاً من المهابة والوقار ، وذات الذرية التى تزوج منها فريق وفريق آخر فى الانتظار ؟ هل ضاقت الدنيا أيها الأحمق ؟ صحيح سكة الصغار عوجاء !

وبلغ بوابة مزلقان للسكة الحديدية وجدها مقفلة ، فأوقف السيارة ، وأشعل سيجارة ، واعتمد بذقنه على عجلة القيادة ، وأغمض عينيه قليلاً ، ليمارى الصداق ، ويتتبع الجدل الذى يدور فى دماغه المكدود !
- ما حكايك بالضبط يا ابن أبى زعبوط ؟ ماذا تريد أن تصنع بنفسك وبالناس ؟ صارحنى يا فتى ؛ فأنت تعلم أنى أحبك على كثرة عيوبك وفراغ عقلك ، وأريد بك الخير والسعادة ! تكلم ولا تخف . . !
من لك فى الدنيا سوى ؟ ولمن تفضى بخبيثة نفسك إن لم تفض بها إلى ؟
تكلم يا ولدى !

- ليتنى أعرف ماذا أقول ! أعرف فقط أنى أحبها . لماذا ؟ لا تسألنى هذا السؤال ؛ فأنا مغتاظ من نفسى لأنى لا أدرى ، بل كلما فكرت لم أجد داعياً واحداً معقولاً لهذا الحب !

- لا عليك يا صغيرى من الأسباب ! ومن ذا الذى عرف سبب حبه من الناس ؟ هذه أمور تحدث ، ولا تحتاج إلى أسباب يقتنع بها العقل . واسمح لى أن أقول لك : إن عقلك هذا فضولى - كعقول الناس كلهم - يريد أن يحشر نفسه كالمقدونس فى كل شىء - المهم أنك تحبها وأنك واثق بذلك .

- جداً . كل الثقة . . . ولكنها متروجة ، وأم . . .

- طظ يا فتى ! متى كان الواقع العاطفي يقيم وزناً لهذه الأمور ؟ هذه أشياء لا أهمية لها إلا في عقلك . أما قلبك فلا يعترف بهذه الأمور إلا عندما يرتطم بها وتصده عن الوصول إلى مبتغاه . . . !

- ولكنى لا أفهم نفسى ، لست بالرجل الذى يتزوج ويعيش في بيت ، لقد كنت قانعاً بمهجة وأنا حر طليق كالهواء . . . كهذه الرياح التى تجرى هنا وهناك : فكيف يمكن أن «أخلد» إلى حبيبة وأسكن إليها وأقف عندها لا أريد أن أبرحها ؟ هذا ما يكاد يطير عقلى ، ويجعلنى أشك فى حقيقة شعورى نحو هذه المرأة . . . كيف يمكن الريح أن تتوقف عن الحركة ، والانطلاق ؟

وصغر القطار ، ومر فى ضجة صاخبة ، وانفتحت البوابة ، واستأنف زكى طريقه . . .

- م . . . ؟ يظهر أنك قررت بصفة حاسمة أنك من عنصر الهواء والرياح . . . أبوك كان يقول عنك دائماً : إنك هوائى ! اسمع ! اصدقنى ! هل تراها جميلة جداً ساحراً طاعياً ؟ . . .

- أبداً . . . أنا مدرك تمام الإدراك أنها ليست رائعة الجمال !

- ومع هذا نحبها ؟

- آه ! جداً . . .

- شئ محزن ! المسألة إذن جد يا أبا الزيك ! هنا الخطر ! هو الحب إذن يا فتى ، ولا سبيل للشك فى الموضوع . . . فرتب أمورك على

هذا الأساس ، أما مسألة الرياح هذه فلا لزوم لأن تشغل بها ذهنك على الإطلاق .

- ماذا ؟ أعتقد أنى أجهل نفسى إلى هذا الحد ؟ أنا واثق بأنى كالرياح ، وأن لا غنى لى عن انطلاقة باستمرار ، وإلا أسنت وتغفنت وفست !

- يا سلام ! أنت أشبه ما تكون بالرياح حين تكون هوجاء ، فأنت أهورج ولا تدبر ما يلقي إليك من الكلام . . . كن ريمًا كما تشاء ، ولكن ذلك ما كان ينبغى أن يقيم لك مشكلة فى دماغك « تبرجلك » إلى هذا الحد ! ماذا لولم تكن درست العلوم ، والطب فى أوروبا ؟ . . . أنت من عنصر الرياح ، ولكنك لست كل ما فى الدنيا من الرياح ، أنت بضعة من الهواء . . . هذه البضعة من الريح هبت على روضة فحملت من شذاها ، وهبت على جيفة فحملت من نتها . . .

- يا حفيظ !

- اخرس يا وقع ولا تستهزئ ! حاول أن تفهم وتتعلل ما أقول لك ! ومرت هذه الريح - التى هى أنت - على حقل فحملت حبوب اللقاح من شجرة إلى شجرة . (وأرسلنا الرياح لواقع) - الله يرحمك يا شيخ زيان ! وربما هبت على كوم من السباخ فساعدت على تأكسده وتحلله . . . ومرت على مدخنة مصنع فحملت من دخانها الأسود . كل ذلك جائز ، فالريح يمكن أن تدخل أى مكان ، وتتفاعل هى وأى شئ ، وتحمل أى رائحة خبيثة كانت أو طيبة . . . وتدفع السحاب من

موضع إلى موضع . . . وهذا كله بفسر أحوالك الشئى فى دراستك
وجدك وهزلك ، وطبك ورقتك وشموسك وتورطك فى المبادل أحياناً
بلا إحجام وبلا تعلق وبلا ندم ، ثم انصرفك عنها إلى وجوه من البر
والإيثار من غير تدرج . . . فانت حقاً ربح . . . قابلة لكل كيف وكل
عمل ، وكل راتحة . !

- ليس هذا موضع خلاف بيننا ، ولهذا رأيتنى «مبرجلاً» كما تقول :
أليس هذا الحب «حالة» موقوتة بمرور الريح ، ثم لا يبقى منها أثر بعد
قليل مع شدة امتلائى به فى هذا الحين ؟
- صبرك يا أحمق . . ! لا تأخذ رأس الكبة وتطير كما كانت تقول
عنك زوج أهلك جلفدان هانم أفندى !

- صبرت ! قل يا سليمان الحكيم ولقمان هذا الزمان !
- ولكن الريح تدخل أيضاً فى خياشيم الحيوانات والبشر ، وتنفذ إلى
صدورهم ؛ وعندئذ تتفاعل هى والدم ، وتجدد كراته الحمراء ، وتسرى
فى العروق إلى الشرايين والخلايا ، وهذه الأنفاس من الهواء أو الريح نصير
شيئاً واحداً هى وهذا الكائن الذى استنشقه فقيم أفادك طبك إن
لم تفهم هذا؟ وقد استنشقتك رتبية يا صاح ، وصرت بضعة منها ،
فلا حيلة لك ، ولا سبيل إلى انتزاع نفسك منها ؛ ولذا ترى نفسك
عاجزاً مبرجلاً ، وهذه هى الحقيقة يا فتى . . . لقد سرقتك السكين ،
وفاتك القطار ، وما وقوفك الآن تحسب أنك تملك الاختيار وإصدار قرار
إلا من قبيل حلاوة الروح . . . ! لقد تلاشت ربحك يا هذا ، وكان

ما كان ، وصرت بضعة من رتبة . . .

- خبيك الله ! لقد سددت مسالك الدنيا في وجهي !

- لقد صارحتك بالحقيقة وأنت بعد ذلك حر . . .

- والعمل يا شيخ ؟

- قلت لك رتب أمورك على هذا الأساس ، رتب أمورك على أنك

منها وبها ، واجتهد ألا تلفظك في حركة زفير أو في نوبة اختناق ؛ فإنك

ستخرج خائراً محطماً . . . نفاية من الكربون لا قيمة لها

ولا اعتبار . . . ! اجتهد أن تثبت وتتغلغل في الدماء ، وتلمع في الشفاه

والوجنات ؛ حتى لا تحترق ! فالمسألة الآن مسألة حياة أو موت ، ألم تقل

وأنت تنهض من النوم : « يظهر أنه آن الأوان ! » أعلم أنك كنت تعني أنه

آن لك أن تواجه العاصفة بصراحة وحزم - فافعل !

ووقف أمام الدار ، وترجل من السيارة يحمل هدية حورية ، وكانت

قامته مشدودة أكثر من المعتاد وهو يصعد السلم المعتم . . .

مع السلامة . . .

صعد زكى السلم مهللاً معولاً أن تكون ضجته في هذه المرة أكثر من كل مرة ، لا بد ! لا بد ! ولكن هذه النية لم تثبت إلى أكثر من قفة السلم ، فما إن وجدها واقفة هناك في استقباله حتى بخرت الضجة في حلقه ، وبدأ في صمته كالماخوذ . . . وما كان خفوته ليفوت رنيبة ، فسلمت عليه وهي تتطلع إلى وجهه كالتسائلة ، وأوجست أن يكون أصابه من جهتها تغير : كأن يكون اعترم مثلاً العدول عن طريقته في التبسط والمضاحكة ، أو من يدري لعل «الأخرى» نغصت عليه عيشه لما أحسته من اهتمامه المفرط بأمها وبها ، وقلوب الإناث ملهمة إلى مكان الخطر . ؟

ورأت وجهه يحمر تحت نظرتها المتسائلة احمراراً يسيراً جداً في

الحقيقة . ولكنه كان كافياً كي تفتن إليه عينها الفاحصة وقلبها الوامق .
فحدثتها نفسها أنها أصابت كبد الحقيقة ، وارتجفت حشاها رجفة
لم تمهدا في عمرها كثيراً : رجفة السرور العميق الجارف لأن بواد
صاحبها لابد أنها كانت من الوضوح بحيث حركت غيرة « الأخرى » ،
ولم تكن قد سمها غريمتها صراحة بعد ، وإن خطرت ببالها بين شواغل
ذلك النهار في معرض السخط الذي تموهه لنفسها بالازدراء ، وأشرق
وجهها بأكثر من أشواق الترحيب والسرور المعتاد لمقدمه ، وهي تصحبه
إلى حجرة أمها ، وتحدثه عن بواد الصحة والعافية لديها ، وقد صارت
هي الصاخبة في الحديث هذه المرة ، وكأنما رثاؤها هذا مرجعه كله إلى
تحسن صحة المريضة المعجوز . . .

وتنفس زكى في ارتياح حين سأل عن « سى عز الدين » فقيل له : إنه
خرج ؛ ولم تلتقط أذنه المعاذير التي أطلقها المعجوز وابنتها لتخلفه عن
استقباله ؛ فقد كان زكى مشغولاً بما أحسه من الراحة لغيابه ، ثم هز
ضميره له سبائته في الهواء مؤنباً ، ولكن في ترفق وإغضاء كالتواطؤ :
— هذه أيها الفتى علامة لا تحيب على أنك تدرى في أعماقك أنك
تدخل ها هنا دخول الذئب الساطى على الشاة ، ينهل الغياب الكلب
الحارس عن الحظيرة المفتوحة الأبواب . . !

وبلع زكى ريقه ، واندفع يستحث خفة روحه ، فانصببت كثرتها على
المعجوز كأن ليس له في ابنتها مأرب ، وكأنه لا يعينها بما يعرضه من أفانين
حديثه ونكاته التي كانت تهتر لها رتيبة ضاحكة يجسمها كله في غير

ما احتجاجاز .

وكان ينتهر فرصة انطلاقها بالضحك ، فيحول وجهه عن المعجوز إليها ، ويتعمد أن يحيل فيها نظره الثاقب خلسة ، متسقطاً العيوب كأنه يريد أن يثبت لضميره وذهنه المستريب أنه ليس غدوعاً ولا غراً غافلاً ؛ فها هو ذا يرى بروز العروق في رقبته ، والخطوط الأفقية فيها واشية ببوار الذبول في شبابها الرقيق ، وها هو ذا يرى بروز عروق يديها زرقاء اللون ، فالحق أن جميع عروقها ظاهرة في أنحاء جسدها عموماً ، وبطنها ليس بالصغير ، كلا على التحقيق ! إنها لم تعد كاعباً من اللواتي « عليهن أغصان الشباب تمتد » . . .

هذا كله واضح لعينه ، بل يكاد يتحسس بعضلات عينيه هاتين اللتين حدقتا تحسس الأجساد واستكناه خفايا الأمراض من ظواهر الأعراض ، وأن هذا الجانب الواعي من ذهنه يعجب : أى شيء فيها دون حسان الأرض بسية ؟ ولكنه مع هذا موقن من ولوعه بها بالغاً ما بلغت أفكاره وبالغة ما بلغت مقاومته !

وتحكم بنفسه نهكاً عنيفاً وهو يتطلع باحثاً عن مسرى ريحه في بدنها هذا ، أوليس يزعم لنفسه أنه « بضعة من هواء » تنفسته هذه المرأة ولم تطلقه ؟ وأنه لهذا مفتون بها مسجون في طرف أنفها الذي يرتجف محمراً وهي تضحك ؟ ها هي ذى تتمخط وقد دمعت عيناها ! عسى ألا يكون قد خرج إلى منديلها فيما استودعته !

ولحته وهو يتفحصها بنظره ، وفطنت إلى ما في نظره من إلحاح

وتطلع وتساؤل ، وتوقفت عن الضحك ، وثبتت عينها فى عينه لحظة قصيرة ، فرأته يرتبك ويحول عينه - ثم نسي بقية العبارة التى كان يتفوه بها فاحتقن وجهه ارتباكاً ، وارتجفت حشاها رجفة أخرى حتى القرار لهذه الآية الجديدة ، هو يرنج عليه كالعدارى ! تلك والله خارقة من الأعاجيب !

وقالت له فى خبث :

- ترى من التى أكلت عقلك ؟ لاهنت به !

فأسعفته بديته وصاح :

- ابصنى من فك يا شيخة ! أذكرتنى بها كافاك الله ! عروسى أين عروسى ؟ أين حورية . . . ؟ لقد جئتها بهدية .

ورفع الصندوق بيديه كليهما أمام صدره كالمباهى وقد تراجع بذقنه إلى الخلف وحقق بعينه فى الصندوق ، فضحكت المرأتان وصاحت رتية تنادى الفتاة التى كانت فى الحجرة المجاورة طيلة الوقت تقطع منديلها بأسنانها مضطربة وأصداء الضحك تترامى إليها من غير أن تتين شيئاً من الحديث الدائر ، ولا تجسر على الدخول ، ولا تستقر قائمة إلى النافذة وقاعدة على الأريكة .

ودخلت حورية تتعثر ومنديلها يتلقى تشنج أصابعها ، ونهض زكى فانحنى لها ، وقدم صندوق انشكولاته ، وفضت حورية الورق ، وشعرت بخيبة أمل ، فقد كانت تتوقع صندوقاً من الصينى « السيفر » مما يقدم لنعرائس حقيقة فى هذه المناسبات . ثم أسرعت تلوم نفسها متذكرة أن

الوقت ضيق ، وليس من المعقول أن توجد في هذا الريف مثل هذه السلعة الفاخرة !

ويجد زكى الفرصة مواتية ليتمادى في التشاغل بمداعبتها ، فيحط شفته السفلى كالمنشاء ويقول بصوت من أشقى على البكاء :

- ألاقبله تجبرين بها خاطر الواله المسكين ؟

وينحني فوقها ، ويضع إصبعه على خده ، ويحمر وجه حورية ، ويجرى خارجة من الحجرة من غير أن تجسر على النظر إليه ، وتجلس على الأريكة وحدها ، وتضع العلبة المعدنية في حجرها ، وتمر على حافاتها بأصابعها وهي شاردة النظرات لا تتين الرسم الملون المنقوش فوقها وأصداء الضحكات من الحجرة الأخرى ترن في أذنيها ، وشعرت بالسخط الماحق على أيها ، لأنه لم ينتظر حضور زكى : فمن بدرى ماذا كان يتم الليلة لوكان حاضراً ولاسيما أنه سيسافر غداً إلى القاهرة ؟

- خسارة ! خسارة ! . . .

وامتلأت نفسها كلها بالحققد على بلاهة الآباء المفرطين الحمقى الذين لا يقدرّون المسئولية ، واغرورقت عيناها بالدموع .

ثم تناهت إليها حركة في الصلاة ، فأدركت أنه منصرف ، وأطلت من موضعها المظلم - ولم تكن تنبّه لسدول الظلام - فرأت أمها ترفع في يدها المصباح ، وتتبع زكى إلى السلم .

وكانت رتيبة قد استيقنت أن صاحبها يروح به الأمر كما يروح بها ، واستيقنت - إذ شاءت أن تستيقن - أنه يتعرض من الأخرى لكدر

وتغيب لا يراها مثلها من زوجها لما في النساء - ولا سيما من على شاكلة
تلك الأخرى - من فطنة خبيثة لا نظير لها عند معظم الرجال ، ولا سيما
من على شاكلة «سى عز الدين» ، فأخذتها لزكى رقة وحنين وكان قلبها
لا يطاقوها أن تسلمه إلى ذلك العناء والتكدير من أجلها ، فأرادت أن
توصله بالمصباح إلى تحت ، وأخذ يراجعها في ذلك . . .

ورببت رتيبة على كتفه اليسرى يسراها في حنان مكظوم ارتجفت به
يدها كأنها تودع في تلك الحركة اختزال صمة كاملة كبحتها دون غايتها
من الأحضان جميع ما في كيانها من اللجم وقالت بصوت مضطرب :
- هذا أقل من قدرك . . .

وانتفضت الصغيرة في مكانها المظلم وقد اقشعر بدنها من غير أن تدرك
نذلك سبباً واضحاً وهي ترى تلك الحركة على ما في مظهرها من براءة
لا تعاب .

- بل يجب أن أنير لك طريقك .

فقال ضاحكاً في رنين عصبي حاد كإعوال الأرواح المحبوسة :

- كلا ، أليس في نوري ما يكفي ؟

وتراجع بذقنه ونفخ صدره ، ونظر إليها بطرف عينه ، فتضاحكت
وقالت وهي تنزل درجتين :

- والله . . .

- والله لا . . . هه ! هه !

ونفخ المصباح فسادت الظلمة السلم . . . وبسرعة البرق انقض

فاختلس منها قبلة خاطفة كرشفة العصفور . كلا ! بل كنقرة الصقر ،
ووقعت القبلة على أذنها من الخلف ، ثم اقتحم السلم يهبطه كالهارب من
مطاردة الشياطين !

وسمعت الصغيرة وقع نزوله السريع في الظلام ، ولم تسمع حركة أمها
التي ظلت واقفة حيث هي لا يصدر عنها حس ، لأن قلب رتيبة على
خفقانه الصاخب اللاهث لم يستطع أن يصل إلى أذني حورية الجامعة
على الأريكة في الحجرة الأخرى . . .
. . . وانصفق الباب . . .

وسمعت حورية أمها تقول بعد انصفاق الباب بصوت خافت خفوت
النجوى :

- مع السلامة .

ثم سمعت وقع قدميها تصعد الدرجات القليلة التي كانت قد هبطتها .
تصعدها في بطاء شديد وكأنها تتزع قدميها انتراعاً ، ونجر ساقها
جراً . . . !

ووقفت حورية في النافذة تتبع بخيالها في ظلمة المساء سيارة زكي ،
فلم تنبه لصوت أمها وهي تناديها :

- الكبريت يا حورية ، لأشعل المصباح . . .

فاضطرت رتيبة أن تذهب بنفسها تتحسس في المطبخ المظلم موضع
علبة الثقاب ، فانقلبت آنية الطعام المطبوخ .

وتنبهت حورية لضجة وقوع الآنية النحاسية ، فأسرعت لتجد أمها

تصنع المصباح والكفتة بالصلصة مراقبة على الأرض كأنها بركة صغيرة من
الدم . . . !

- ما هذا يا ماما . . . ؟ سكبت عشاء أبى . .

فقالت رتيبة بضيق وتأفف :

- قطعة تقطع الطيخ وسينه . . لا أدري لماذا يتشبث أبوك دون

الناس جميعاً بأن يتعشى طعاماً مطبوخاً ؟

وكانت أول مرة تصرح فيها رتيبة بانتقاد « سى عز الدين » ، وتنبهت

لهذا ، فحولت السخط إلى بهانة :

- وبهانة هي الأخرى : هل كان لابد أن تذهب الليلة إلى دارها ،

فكأنما أكلتها الغربة والأشواق إلى أولادها ؟ هل كانت ستجرهم

القطط ؟

ومع السلامة

مسح «سى عز الدين» باللقمة بقية البيض المقل فى طبقه ، وحشا به
فه فى شهية قوية ، وقال وقد رفع حاجبيه وعيناه فجولان فتذرعان المائدة
طولاً وعرضاً كأنه يتسقط بقية يحشوها فه وبطنه ، ثم بدأ يلوك لقمة من
الجبن القديم كمن يختبر طعمها بعد البيض قال :

- هه . . . ! ألم تجد القطعة إلا حلة عشائى لتسكبها على البلاط ؟

شئ بارد . . . !

ولم ينتظر من رتبة جواباً ؛ ولذا لم يستغرب لبطنها عليه فى الجواب ،
والحق أنه كان يسلى نفسه بالكلام كهادته وهو يأكل ، ولو أنه استبطأ
جوابها ورفع إليها عينيه لرأى سهوماً واحمراراً بنى عن ارتباك وشئ من
الحجل ؛ فهى من المرات القليلة جداً التى كذبت فيها عليه ، وهل كان

بوسعها أن تقول له : إنها - لا القطعة - التي سكبت الطعام ؟ وإن
السبب هو الظلام ؟ وإن الظلام كان سببه انطفاء المصباح ؟ ...

وكان هذا الحاطر كافياً لاشتداد ضربات قلبها مع أن انطفاء المصباح
كان أمراً لا يحتاج إلى تدقيق في التفسير ، فهبة هواء كافية جداً
لإطفائه ، وما أكثر ما يحدث ذلك في الريف ، ولكن من على رأسه
«بطيحة» لابد أن يتحسسها ...

وكأنما اختفى «سوى عز الدين» ، وتلاشى صوت مضغه المرتفع ،
وهي تغوص في صخب قلبها ونمال الدماء التي تدافعت في شرايينها كأنها
أضواء الصواريخ في مهرجان عرييد ، وعضت على شفتها وهي تمضغ
لقمتها على مهل كأنما لئلا تحسبها عن غلوائها ، وغاصت برأسها قليلاً
بين كتفها كأنما تريد أن تمحج عن الأنظار موقع شفتيه على أذنها هاهنا
من وراء ...

لم تكن ساخنة تلك القبلة ولا محرقة ولا عميقة ، ولكن دغدغتها لم
تزل تمشي في أوصالها وأعطافها ، حتى لتهم أن نهيم على وجهها في
دجى الليل هذا وحيدة لا تبغى مقصداً معيناً وراء هذا الانطلاق
والهبان ، عسى أن تذوب في فحمة الليل أو أنسام الهواء أو ومضات
النجوم ... ثم ترفع عقيرتها بالغناء والكون مصغ وصوتها يعلو ويعلو ،
ويعلو ، حتى يستوعب صوتها الكون كله ، ويستنفد كيائها كله ،
فتستريح عندئذ بذلك الإنطلاق الذي سامت الغناء ...

وتهدت في أنة عميقة كانت قصارى ما استطاعته من ضروب

الانطلاق ، ونبتها رنة نجشثة وهوينض عن المائدة حامدا الله ومثيا على
نعماء . . .

وغسلت يديها على عجل ، ولم تدخل الأطباق إلى المطبخ وتركها
ريثا تأتي بهانة في بكرة الصباح ، وارتمت على الحشية فوق الأرض حيث
تفترش هي وزوجها ما بين الأريكة والنافذة التي تعلوها القلة الحمراء ،
ووضعت يديها تحت رأسها وهي راقدة على ظهرها وعيناها تحدقان في
سما الليل الصافية ، وقد أحست لنجومها وجداً وهوى ، ووجدت
لبرودة الحشية والوسادة لذة تخفف من برح سخونة دماها . وابتسمت ،
وأغمضت عينيها . . . وودت لو نسيها الدنيا ونسيت هي الدنيا ، وتركت
هكذا وقتاً ليس له انقضاء . . .

وتنحنع عز الدين وهو يسلك الششب من قدميه عند العتبة ،
ويتحفز للوثوب إلى الحشية في نشاط من يستقبل أمراً مرتقباً مشهوداً ،
وتلملمت في رقبتها وأغمضت عينيها وتأوهت بلا افتعال مقصود ، ونأت
عنه بجانها من غير أن تتحرك حركة واضحة . . .

ورقد يجوارها ، وتخشبت في مكانها ، وتنحنع ، ثم وضع يده
عليها ، ففتحت عينيها بتباطؤ ، وقالت متغاية وهي تعصر جبهتها بيدها :
- يا سائر ! . . .

- مالك . . . ؟

- الصداع ! صخيخ يا سي عز ، من عنده مريض هو المريض
حقاً . . . واهأ لى ! كل أنملة في جسمي كأن بها منشاراً . . . أين كان

لى كل هذا ؟ لكأنى بالسكين قد سرتنى فلم أشعر بنفسى إلى أن حل على
التعب مرة واحدة . ربنا كبير ! أعطانى القوة إلى أن نفخ فى
صورتها . . .

وقبلت يدها ظهراً لبطن فى خشوع جعل يد سى عز تنكش وترعوى
عن زحفها غير المحتشم ، وأحست بهذه اليد تسترخى فوق فخذها ،
فرقص قلبها سروراً ، وهل يمكن أن تطيق ثقله فى هذه الساعة ؟ ليته
يزكها وشأنها !

ولم تطل فرحتها كثيراً ، لأن الحياة دبّت مرة أخرى فى أصابعه ،
وجعلت هذه الأصابع تعبت من فوق القميص بجوف سروالها ، ثم دفعها
فى جنبها دفعة خفيفة وقال :

- يا شيخة . . . ! روى امال . . . حالاً سيذهب عنك

الصداع . . . !

وحاول أن يدغدغ جنبها ، فضحكت وتلوت ، ثم أسرعت تقول :

- والنبي يا سى عز . . . الضحكة كأنها خارجة من جمجمة رأسى

من فوق !

وعادت للجمود ، وجمد بجوارها ، وحاول أن ينام ، ولكنه ظل
يتقلب ، واختلس نظرة إليها فتصنعت النوم ، وهزها فزامت متناومة
وكأنه جمع رأيه أخيراً على أمر ، فلم يبال نومها ، وألقى بثقله عليها وهى
ماضية فى تناومها ، وانطلقت براكين الغيظ فى نفسه من هذا الصداع
الذى تعتمد أن يفسد عليه ليلته وهو على وشك السفر ، فكأنه تأمر هو

والقطة التي قلبت حلة عشائه في هذه الليلة النكراء . . . !
وزادت سلبيتها التامة من حسرته وهو يزفر وينقلب على جنبه ثم
يستسلم للغبط . . .

وزايلها شيء من توتر عضلاتها عندما سمعت غطيطة المنتظم ، ولكن
أعصابها ظلت تصرخ من داخلها تحت عبء هذا الإنهاك الجارح
لوجدانها . لقد كانت كضحايا محاكم التفتيش الذين تربط أيديهم إلى
جواد ، وأرجلهم إلى جواد آخر ، ثم يساط الجوادان ، فيذهب كل منهما
في مذهب ، وتمزق الجثة شرمزق . . . !

وتقلبت ، وتهدت ، وحاولت أن تنام . ولكن النجوم أخذت تومئ
إليها في سواد السماء الشفاف ، ونهضت قائمة لتشرب من القلة الحمراء ،
ثم أسندت رأسها إلى الزجاج البارد فاستشعرت لبرودته راحة ، فتركت
نفسها للحصان الذي انفرد بها ، بعد أن استسلم الحصان الآخر من
خلفها للكرى وقد استنفدت العدو الجائعة قصارى قواه . . .

ولم تتين لسبحتها معالم واضحة ، ولكن الراحة سرت إلى نفسها
رويداً ، وأشرق وجهها بمثل نضارة الطفولة ، وهي تتناوب وقد دب
النعاس إلى أوصالها مصيخة لصرير جنادب الحقل ونقيق الضفادع
في نغماتها الرتيبة رتابة بلهاء . . .

ورقدت على الحشية بعد أن تيقنت ضبط المنبه على الساعة
الخامسة ، ولو كانت دقائق المنبه تنبئ عن قلب لفطن إلى حنان لمساتها
وكانها تنيط به أملاً لها تستحلفه ألا يجيب . . .

وطاف بذهنها أخيراً سؤال واحد واضح وهى تترق للنوم :

- ترى ماذا يحمل لها الغد ؟ ...

ولم تفكر طويلاً كى تقول لنفسها وهى ترتجى فى أحضان الكرى :

- لا أدرى ... ! وما أهمية هذا ؟ ... ألسنت هاهنا باقية أياماً

أخرى ... وأنه سيرحل غداً ؟ سيرحل ... سيرحل ...

* * *

ورن جرس المنبه ، وأسرعت نهز «سى عز الدين» وبصوت مضطجع

تناديه ليقوم ... وقام قاعداً ، وتأوهت ، وشكت من أوجاع مفاصلها

كلها ، وأعادت ربط المندبل فوق حاجبيها ...

وتأذى «سى عز الدين» كأنه مشلول عن هذا كله ... وسأها :

- وبعد ؟

- لا تقلق على ، توكل أنت على الله من غير شر . وخذ حورية

معك .

فقال بدهشة :

- حورية ؟ ولكنها تريد أن تبقى معك هنا بضعة أيام ... قالت

لى : إن الريف أعجبها وتريد أن تبقى ...

وتأوهت رتية مرة أخرى وقالت :

- يا جنى ! ... وهل أنا فى حالة تسمح برعاية الصغار أيضاً ؟

أليس بحسى هم الكبار يا «سى عز» ... ؟

وهز «سى عز» رأسه مقتنعاً ، وقام ليغتسل ... وتحاملت رتية على

نفسها وأيقظت حورية . وصحت البنت مدعورة ، وعقدت الدهشة لسانها ، ولكن الوقت لم يتسع أمامها للمناقشة ، لأن أباهما شخط فيها شخطة مضرية . ولأن عبد الرسول طرق الباب الكبير ، وصاح من الخارج بصوته المزعج :

- الدوكار جاهز . . . الميعاد قرب . . .

وعندئذ لكمها أبوها ليستحثها على الإسراع ، وأتم ارتداء ثيابه على عجل ، ووقفت رتيبة تودعها على السلم وفي يدها المصباح وتقول بنبرة نسيل حثاناً وحسرة :

- ارفع الياقة على رقبتك يا « سى عز » من طراوة الصبح . . .
أهكذا لا تشرب ولو فنجان شاي ؟ . . . مع السلامة . . .

وانصفق الباب ، ودرجت العجلات على أرض الطريق ، وأدارت سلم ظهرها ببطء ، وتمطت وتنفست نفساً عميقاً ، وانطرحت على الحشية لتنام بعد أن نفخت بقمها المصباح . . .

ظمان

لم يفكر زكى فيما فعل إلى أن أدار محرك سيارته وهو كالمسوع ،
وأطلقها وكأنه يطلق ساقبه للريح . . .

- ما هذا الذى فعلت أيها المجنون ؟

وهز رأسه هزة هى هزة العارف الفاهم أكثر منها هزة المفضى أو
المتواطئ .

- يعلمونك ، ومهما يعلموك يا زكى فأنت فى النهاية ثور ابن ثور !

جحش ابن جحش كابراً عن كابر يا ابن أبى زعبوط ! أين علمك يا ولد
ودرايتك بخفايا هذا الحيوان العجيب المتناقض التركيب الذى تنتمى إلى
سلالته البلهاء ؟ حياء ما بعده حياء ، واحتشام بلغ حد الاضطراب
والتلعثم . . . وينطفئ المصباح ، فيبرز فى الحال هذا اللص الوقح المحتق

في داخلك ليسطو على رقبة المرأة ، ويضعك بقضك وقضيضك ،
وكيانك وأخلاقك ومآلك ... أمام أمر واقع ...

وشعر بجوفه يكاد يحترق ، لا يدري : أمن الغيط ؟ أم من أي
شيء ... ؟ إنه لا يكتم نفسه ما يضطرب في أعماقه من تلذذ بتلك القبلة .
لذة عريضة ، فهذا الولد الشقي « المربح » الرابض في الداخل يكاد يحن
فرحاً بما ظفريه ، فهو طول عمره ولد شقي لا يصمد أمام غواية ...
ولسانه ليس قصيراً كما يبدو :

- هيه ... ! أكنت تفضل أن تعود الليلة وديك بين رجنيك
كالكلب المبلول ؟ أكنت ترضى عن نفسك ؟ أمرك عجب ! أنا وقع
داعر ... هذا صحيح . ولكنك منافق ! تريد أن تتلذذ بانتصاراتي
ومغامتي ، وأن تحتفظ لنفسك بحق الاعتراض والاستنكار باخيفة الشيخ
زيان ! أثمرت والله فيك تربيته العصماء ... !

وتراءى النور الأحمر فوق بداية المزلقان . فأوقف السيارة على
مضض :

- وبعد في هذا الضمأ الملعون ؟
- طبعاً . إنه دخان المعركة التي تدور هنا في جوفك بين صدق
ومكابرتك .

- اسكت يا نور ... أدخلتني في متاهة ...
- بل أدخلتكَ مدخل صدق ...

ونظر متأففاً يتظاهر بانتظار ظهور القطار كي تفتح البوابة . فلم ير له

أثراً ، ولمح زيراً بجوار المزلقان يشرب منه السابلة من الفلاحين والسائقين
وعمال الدريسة . . .

- والله يا ثور لأسقينك مما يشرب منه هؤلاء الثيران !

وفتح باب سيارته بجنت ، وهجم على الزير في عناد ، ونجرج الكوز
الصدئ حتى آخره ، فوجد ماءه بارداً لطيفاً قضت برودته العذبة على
شواظ السخط ، فلم يستطع أن يسترد حفيظته على ذلك الولد
العفريت ، وبدأ ينظر إليه في إغضاء ودود .

ومرق القطار ، وانفتحت البوابة ، فخف إلى عجلة القيادة ، وانطلق
بروح جديدة إلى المدينة الراقدة في الظلام . . .

وعند مشارفها بدأ يشعر بالضيق وأنه لن يطيق الليلة دخول
المستشفى ، وهون الأمر على نفسه قائلاً : إنه ليست لديه حالات
خطرة . . . واستراح لقضاء الليلة في بيته الذي يفصله عن المستشفى ثلاثة
شوارع ، والذي لا يلم به إلا نادراً ، وحينما يستقبل ضيوفاً يتحتم عليه أن
يقيم لهم مأدبة أو يقضى معهم سهرة . . .

وما إن دخل البيت ، واستقبل فيه العزلة حتى اتخذت المسألة شكلاً
آخر ، وبدأ الظمأ يداعب حلقة من جديد ، فطش شفته السفلى وهو يهز
رأسه .

- البلوى أنى محبط بكل حيل هذا الحيوان العجيب ، ابن أبى

زعبوط . . . صحبة قديمة . . . !

وبحث عن شيء يشربه ، شيء غير الماء . . .

- أنا أعرف ابن الكلب هذا ! وداوئى بالتي كانت هي الداء . النار للنار .

والتى ثيابه فبعثرها فى الحجرة كأنه يغيظ نفسه ، ثم جلس إلى الزجاجاة ، ونجرج كأساً طافحة ، ومص شفته العليا بالسفلى ونظر إلى الزجاجاة وقال :

- وبعد ؟ ما العمل الآن بعد أن عملها « ابن الكلب » ؟
- أنت أردت هذا ، ولكك كنت جباناً ، فاستحييت ثم أطفأت المصباح . . .

- أبدأً والله . . . لم أطفئه وفى نيتى شئ من هذا . . .
- أصدقك بلا حاجة إلى يمين . . . أنا متيقن أنك لم تطفئ المصباح لهذا الغرض ، ولكك نسيت أنى كنت هناك محبوساً لأنى كالوطاويط التى كنت تصيدها من الدوار القديم لا أستطيع أن أخرج فى النور . . . فلما أطفأته بخبيتك مجاملة وترفقاً بها انطلقت أنا . . . ولا تنكر أنك ذهبت إلى هناك على سُنّى . . . ثم ركبك خجلتك . . . وكنت طول الوقت تنمزق شوقاً إليها . . . حتى كدت تنفق كالحمار حسرة عليها . . .

وجف ريقه ولم يستطع أن يكابر ، وملاً كأساً ثانية بأناءة ، ثم شرب منها رشفة ووضعها برفق على المائدة . . . وجعل ينقر على الكأس بآظافره ، ثم أشعل سيجارة ، وحاول أن يسمع الإداعة ، ولكنه لم يلبث أن ستمها فأغلق المذياع .

- شيء سخيف . . . ! أريد ولا أريد ! ذهبت وأنا أريد ، ولكن
ابنتها طولها ، وصورتها كانت كافية لإفساد كل شيء . لم آخذ وأنا صغير
حمامة من على أفرانها ، فما حاجتي اليوم إلى ذلك وأنا لست
محروماً ؟ . . . طبعاً لست محروماً . . . وعندى عملى ، ومرضى . . . ثم
هل أنا غلام مراهق حتى أصدق أن الحياة الحب والحب الحياة . . .
وسائر هذا الكلام الفارغ ؟ هذا مرض وهم . . . وأنت طول عمرك
تحارب الأوهام يا زنديق . فهل تغرق فيها على آخر العمر ؟
ونفض واقفاً وراح يتمشى فى الحجرة ، وهم أن يتناول كأساً ثالثة ،
ولكنه أحس بالجوع ، وبمحت فى المطبخ عن شيء يأكله فلم يجد . . .
وتذكر عشاءه الذى ينتظره عبثاً فى المستشفى :

- ولم لا ؟ لماذا لا أذهب وأمر على المرضى ، وأكل . . . ثم
حمارتك العرجاء ولا الغزل على السلم ، «وادينى بوسة أنا زى
أخوكى» . . .

وراح يدندن بها صافراً ، وهو يرتدى ثيابه ، ويتقصع هازئاً من
رومانتيكيته الطارئة . . .

- والله كبرت وخرفت يا بن أبى زعبوط . . .

وأخذ طريقه إلى المستشفى . . .

ووجده المرضى أشد زناطاً من عادته ، ووقف طويلاً عند سرير «أم
فاطمة» التى نيفت على الثمانين يستحلفها أن ترضى به عريساً ما دام قد
رد إليها الحياة ، والمرأة تضحك عن فيها الألدرد وتدعوله بالستر . . .

والتقط الكلمة .

وعاد إلى حجرته وهو يندندن :

- الستر . . . يا سلام على الستر . . .

وطوح بمعطفه بعيداً ، ونادى مهجة قائلاً :

- إلى يا ستر . . .

وقرصها من خديها في وقت واحد بعد أن أغلق الباب وجعل يندندن

وهو يلعب حاجبيه :

- ستر وغطا . . . يا مقطقطه . . . !

وجلس على حرف الفراش ، وجعل يرقبها وهي تخلع ثيابها في أناة

وترتيب على عاداتها في هدوء وثبات ، فاستولى عليه وجوم وانقباض بعد

أن هدأت الضجة الصاخبة التي أثارها ليمارى نفسه ، وتكشفت في هذا

الصمت عن وحشة ، ولا يدري لماذا خطر بباله عندئذ منظر ولد صغير

مفرور في قرية موحشة والمطر ينهر عليه في سكون الليل . . . ؟

وأحس برغبة شديدة في البكاء . طغت عليها رغبة أشد في

النوم . . . وكأن فأساً قد فلقت دماغه نصفين من عمق الصداع !

ولم يحس باهتزاز الفراش وهي تعلوه إلى جواره إلا إحساساً غامضاً

جداً . وتنبه وقال لها بصوت مضعضع :

- عطشان !

وناولته الماء ، وشرب من غير أن يفتح عينيه ، ثم انطرح واستغرقه

النوم . . .

الجميز

تنبه قبيل الفجر على رنين جرس التليفون ، ورفع المسامع والصداع يكاد يطير عينيه من محجريهما ، فوضع يده الأخرى على رأسه كأنه يريد أن يمنع يافوخه من الانفجار ، ولما وضع المسامع جعل يدلك عارضيه ، وسمع صوتها من خلفه تقول له :

- ما الخبر ؟

فقال لها باقتضاب :

- الحاج إسماعيل . . . انتكس . . . لا بد أنه أكل شيئاً .

ورمقها بنظرة خاطفة وهي نصف راقدة ، وقد برز ثدياها من فتحة قميصها ، وتقوست عجيزتها كأنها جاموسة جائئة فوق مذود ، واستطرد قائلاً :

... رجل « طفس » ... « درام » ...

ولوى شفته ممعصاً ، ثم أسرع برتدى ثيابه على عجل ويحمل حقييته ، ولم ينس أن يتناول قرصاً من الأسبيرين قبل أن يغادر الحجرة صامتاً شارد اللب إلى أن نبه وهو يهيم بإغلاق الباب وراءه صوتها ينبعث من السرير وقد مالت إلى الأمام ، فزاد ثدياها بروزاً من فتحة القميص :
... بالسلامة .

فكأنما أدهشه أن يسمع صوتاً ينبعث من فراشه بعد أن غادره ، بيد أنه تذكر ما نسيه ، وهز لها رأسه وعلى فمه ابتسامة لم يكن لها أثر في عينيه الواجمتين ، وهبط السلم مسرعاً ...

— هـ .. ! لم تيش ، ولم تعد إلى حجرتها .. هـ ! لعلها علقت على الفجر أملاً خيّه صدر الليل ... !
ورفت على فمه ابتسامة باهتة وهو يقول لنفسه :

— لا شك أنها تدعو الآن على الحاج إسماعيل لأنه اختار لنكسته هذا الوقت السخيف ...

وصافحت وجهه أنسام الليل الرطبة ، متطلع إلى السماء التي تاهبت لاستقبال الفجر الوليد ، واستوقفه منظرها المهيب البهيج لحظة ، ثم لم يلبث أن زام مستكراً وهو يتجه إلى باب الجراج .

— يالك من لكع ! الرجل يحود بأنفاسه البخراء على صدر زوجته الإسكندرانية الخلدجة التي تزوجها منذ أقل من عام . وأنت تضع الوقت في النظر إلى السماء ! ... أسرع يا رجل حتى لا

يفسد الدمع شرطة الكحل في عينها النجلارين ، ويتشحور بالقنوت
السوداء أحمر خديها المللع !

وأدار محرك السيارة وخرج بها القهقري . . .
- جاموسة أخرى بيضاء سمينة تليق ب . . .
وقطب حاجبيه فجأة :

- بماذا أيها الدغف ؟ أليست كجاموسك السوداء !
وعادت عروق عارضيه إلى الانتفاض ، وفلقت الفأس الملعونة
يافوخه مرة أخرى . . .

- تبياً لها ! ما من ليلة قضتها منذ ثلاث سنوات في
حجرتها . . . الحمد لله إن بابا يفصل بين السكن وبقية المستشفى .
وهز كتفيه استهانة وتهكماً .

- باب حقاً ! كأن الجميع لا يعرفون أنها تنام في فراشي كل ليلة
وكل قبولة . . . ومع هذا . . . هي ! تصر على أن تذهب في الصباح إلى
حجرتها ، وتستلق في فراشها ، وندق الجرس للترجعية كي تدخل إليها
بقدح الشاي . . . وتكرر الثقيلية كل يوم . . . كأنها لا تدري أن
الترجعية تضحك منها في سرها . . . ولا سيما في أيام الصيف حينما يكون
قيصها ندياً بالعرق ، وملاءة الفراش من تحتها جافة كالخطب !

وسرى عنه الضحك ، ولكنه لم يسترسل في ضحكته طويلاً . . .
وشرح أذنه صوت صراخ ثاقب : والتفت إلى اليسار ، حيث مصدر
الصراخ ، ليرى بيت الحاج إسماعيل في وسط ضيعته ، وقد فتحت

نوافذه على مصاريعها وأطلت منه الجلايب السوداء . . .
وأوقف السيارة ، ثم دار بها عائداً من حيث أتى وعلى فمه ابتسامة
واهنة صفراء :

- وقعت الواقعة ، وساح الكحل على الأحمر يا جميل . . . !
واستقبلته في اتجاه الشرق وهو عائداً أسراب الحمام تنطلق من أبراجها
البيضاء ، وزقزقة العصافير وجاعات الفلاحين متجهين إلى حقولهم
والفلاحات حاملات الجرار . . . ورأى فلاحاً يسوق حماره وقد حمل
عليه حمولة من الجميز ، فذهبت نفسه إليه ، وأوقف السيارة على جسر
الترعة ، واشترى منه ، وطفق يأكل ، وكأنه لم يعد يشغله من أمر الدنيا
إلا نأر له عند هذا الجميز . . . !

وأعقب الشبح لديه راحة أشبه بالطمأنينة ، وجلس يطل من نافذة
سيارته على الماء المنساب في رتابة وتشابه تحت بصره ، وأشعل سيجارة .
ومع دخان السيجارة بدأت الخواطر مرة أخرى تفد على مسرح وجدانه ،
ولكن في هدوء هذه المرة كأنها أكلت هي أيضاً من جميزه وشبعت ، فلم
تعد لديها حديثها الأولى . . .

- هل أنا أحبها ؟ ولماذا ؟ أليست شهوة ساعة كهذا الجميز ؟
وقطب حاجبيه ، ولم يستطع أن يكابر !
- كلا ؛ إنه ليس الشوق ، كلا ؛ فلست أتذكر ملامحها تماماً ،
ولا أستطيع أن أستحضرها في خيالي . . . ومع هذا أشعر أني أريدها .
إني بحاجة إليها . . . كلا . ليس هذا هو السبب يا وقح ! إن « هذا » ربما

لا يحدث ، لم تخطر ببالى مطلقاً وأنا راقد مع مهجة . لم أغمض عيني وأتصورها كما كنت أتصور تلك الممثلة المغربية أوزوجة الحاج إسماعيل ، وأنا أغترف من جميز مهجة ملء شدي ، لم تخطر لى قط ، ولم أتمن أن تكون بديلة من مهجة بجوارى أمس ، ولا هذا الصباح ، كل ما شعرت به ضيق بمهجة ورغبة فى أن أكون أنا هناك معها ، معها فقط ، وحسى أن أكون معها . ولو بلا ملامسة . . . يكفى أن أحس أنها معى . . . !
ورمى السجارة فى مجرى الماء وظل يتبعها نظره إلى أن حملها التيار ، وعندئذ فطن إلى أن التيار الذى كان يراه متراخياً أسرع فى الواقع بما كان يبدو لعينه ، وحركة السجارة كشفت له عن مدى تدفقه الخفى . . .
وتهد :

- وكذلك أنا . . . لم أكتشف قوة هذا التيار الذى يبدو هادئاً حتى سقط فيه . . . سقط فيه ماذا . . . ؟
وتملكه الفزع للصورة التى خطرت بذهنه ، ولا يدرى من أين برزت فجأة ؟

- سقطت فيه رمة الجاموسة !
وسرت فى جسده قشعريرة ، فأسرع يدير محرك سيارته إلى المدينة ، ومن غير أن يراود نفسه عاد إلى بيته الخاص ، ودخل الحمام وكأنما خلت نفسه من كل ما يشغله إلا تجويد الاستحمام والاستمتاع بسخونة الماء وبخاره المتصاعد ، وقد أحس بأعصابه تسترخى ، وبقله صحيفة بيضاء ليس فيها أثر لشيء ، وصار وجهه هادئاً هادئاً ، كأنه فى سمرته وهدوئه

صفحة ماء التربة الحمراء . . .

وارتدى ثيابه ، ولم يجد نفسه يتألق هذه المرة ، حتى كأنه يعتمد ألا يتألق أو يلمع . . .

لم يكن يفكر فيما يصنع ، ولكنه كان يتحرك بهدوء وثبات كمن يسير على خطة مقررة رسمها له من يملك التقرير . . .

وأعد لنفسه كوباً من القهوة ، ثم أخذ سبيله إلى الضيعة . . .

شيء واحد أكيد

تقلبت في مضجعها ، وفتحت عينيها لتجد الشمس تفتش الحجر ، فأغلقتها كرة أخرى وهي تتمطى ، لم يطل نعاسها أكثر من ساعتين إلا قليلاً ، ولكنها نهضت مجددة النشاط ، وأسرعت إلى حجرة أمها فألقت عليها تحية الصباح ، واستمعت إلى حديث بهانة التي عادت في البكور وهي تصب الماء على وجه رتيبة ويديها ورتيبة لا تكاد تسمع من ذلك الحديث كله شيئاً . وإن رن اسم حورية في أذنها جملة مرات ، فاختصرت رتيبة الحديث . وهي تجفف وجهها بأن ذكرت لبهانة أسباباً مرتحنة لرحيل الفتاة مع أبيها . وفرغت بعد ذلك للمرأة كي نسوى الفارق وهي تتمشط ، وانتفتت بعد ذلك : « روب » لبسته فوق قميص نومها . وهي تنظر إلى المنبه ، وردت الطرف إلى المرأة ، وشاعت في وجهها ابتسامة الرضا .

أمها من الحجرة الأخرى ترفع صوتها بسؤال . . . لعلها توجه إليها
ذلك السؤال الذى استعادت الاهتمام بتوجيهه لنفسها ومن حولها فى كل
يوم من أيام العافية :

- ماذا نأكل اليوم ؟

ولكن رتيبة فى شغل بدقات قلبها عن هذا السؤال . إنها تجيب عنه فى
غير احتفال :

- أيما شيء . . .

جواب يشبه الجواب المعتاد عن ذلك السؤال فى جميع الأيام ،
ولكنه لا يصدر اليوم ككل يوم عن عدم اهتمام بالحياة على وجه
الإجمال ، بل عن فرط اهتمام بحليل من أمرها تهون فى جانبه سائر
الأمر . . .

ودخلت تطفر فى خطوها إلى حجرة أمها فى حبور ظاهر ، فعانقتها
وقبلتها قبله هيام ، وكأنما قرأت دهشة - لا وجود لها فى الواقع - على
وجه أمها ، فراحت تتقدم بين يدي فرحتها بالمعاذير :

- هذه يا أم علامة العافية ؛ أليس تهتمين إذن بالطعام ؟

فنظرت العجوز فى سداجة إلى وجه ابنتها وقالت :

- ما عن طعامي سألت ؛ فأنى لى أن آكل مما تأكلون ؟

- والاهتمام بطعامنا ، أليس من علامات العافية ؟ لقد برئت

الدجاجة الكبيرة فأطاعت الاهتمام بالتقاط الحب لدجاجاتها

الصغار . . . !

وقبلت أمها قبله كبيرة أخرى ذات صوت مدو وعينها تتطلع من فتحة
النافذة إلى صفحة السماء . . . كأنها تطيع قبلتها على وجه الكون . . .
فرح غامر كشعاع الشمس ولكن بلا تفكير، ومحض تطلع إلى انطلاق
من غير تفكير في محطة الوصول . . .

لن يلبث حتى يأتي . . .
وأنت بهانة بالشاي وطعام الإفطار . فجعلت تأكل وهي لا تكف
عن الكلام كأنما تريد أن تتشاغل وتشغل المرأتين عما في صدرها من
جيشان . . . وأذنها لا تنفك مرهفة لكل نائمة تأتي من الطريق . . .
ورفعت بهانة الخوان ، وغسلت رتيبة يديها ، ووضعت شيئاً من
العطر خفيفاً ، وتشاغلت عند النافذة بيسط الفراش ليصيب شيئاً من
الشمس . . .

لم تأخر اليوم ؟
لعله لم يتأخر ، ولكنها تستبطن قدومه وقد أخلت له الطريق من
الصخور والأشواك . . .

وحملت القلة وتشاغلت بغسلها ، ثم عادت بها إلى النافذة ،
ووقفت تتطلع إلى الطريق والحقول وقد بدأ قلبها يرقص رقصة من نوع
آخر . . . فيها قلق وتوجس . . .

أتراها كانت قبله طيش ؟ أتراه رأى فيها «مهجة» أخرى ؟
واستنكرت هذا الحاطر . . . «زكى» فتي نبيل . إنه يحبها ، ولما في

نفسه مكانة . وهل نسبت ارتباكك واضطرابه ؟

مهجة ؟ ومن مهجة هذه ؟

إن هي إلا بغى ! وهل عليه من حرج فى بغى تبذل له نفسها وهو رجل يضح بالحياة والقوة ، وليست له زوجة ؟
وامتلأت نفسها امتعاضاً من هذه البغى ؛ حتى اربد وجهها . . . آه
لو كان تزوجها ! . . . إنها تقرأ ذلك فى عينيه . أليس يرتد فتى يافعاً وهو يحالسا كأن الزمن لم يتحرك به منذ فارقها !

قسمة ! لا شك أن عينه كانت عليها ، ولكنهم تعجلوا بزواجها قبل أن تسمح له ظروف طلب العلم بإبداء مثل تلك الرغبة . . .
ومن يدري ؟ لعل سفرته إلى إنجلترا لم تكن خالصة كلها لوجه العلم ! ولعل للبأس والضيق بالمقام فى موطنه بعد ضياعها من يده بدءاً فى هجرته بأساه إلى مقام بعيد .

وهل كانت تنتظره بلا زواج إلى أن يعود ؟

ولمَ لا ؟ ما أكثر « البنات » اللواتى فى سنّها وبقين إلى اليوم بلا زواج ! هذه هى السن المعقولة ، السن الواجبة للزواج ، سن النضج ، لا تلك السن الصغيرة التى لا تدرى فيها الواحدة رأسها من قدميها ، فإذا بها - وهى لا تدرى - أم شرذمة من الأطفال ، ثم جدة . . . وهى فى حقيقتها تنهياً لتمييز طعم الحياة . . . !

وزفرت من قلب صديق وهى تستعرض رواسب عمر قضته كالبقرة التى تدور فى الساقية وهى معصوبة العينين لا تدرى ماذا تفعل ! وهى فى

الواقع تلقى من جوفها قيثاً . . . عبارة عن أطفال ، وإدارة بيت ،
ومعاشرة رجل ، واستقبال ضيوف . . . وكل ذلك ليس له أثر في نفسها
إلا الدوامة والكابوس . . . !

كانت حريّة بأن تشعر بحياتها حتى لو كانت انتظرت ، وقطعت
حاجبها قليلاً وهي تتذكر صباها وصباها ، وأنه لم يغازها يوماً ، ولم يخطر
ببالها أن بينها حباً . . .

ولكنها - ويا للعجب ! - تدرك الآن فقط أنها كانت طول عمرها
تنطوى له على حب ، بيد أنهم قطفوا الثمرة خضراء ، فلم تدرك مكنون
نفسها ، ولعلها ما كانت لتدركه ألبتة لولا ذلك اللقاء العارض . . .
كانت تعيش كمن تسير في نومها ، شيء يفصلها عن مواقع إحساسها
لا تدري ما هو . . . إلى أن صحت . . . ؟

وشيء واحد تدريه : أن من يصحو لا يمكن أن يعود إلى الحلم الذي
عاشه معها تعلق بالكرى . . . !

لقد صحت . . . صحت . . . صحت . . . هذا أكيد . إنها واثقة
بأنها صحوها معاً ، فهو أيضاً صحا من كابوسه . . .
هذا أكيد . أكيد . ولا يمكن أن يغير من حقيقته شيء . . .
ولكن ماذا سيحدث . . . ؟

حتى هذا ليس مهماً ، فالشيء الوحيد الذي ينفرد بالأهمية أنها الآن
صاحبة ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يملأ آفاق نفسها ، ولا أهمية بعد
هذا لشيء . . . أي شيء . . . !

المخمور

(تراجيديا هامسة)

« لم آت لأدعو الخطاة
إلى التوبة .. بل الأبرار ! »
هنريك إبسن

إلى السائرين في الظلمة .
وإلى من يلوح لهم - من أنفسهم - فجر جديد . .
* * *

وأيضاً إلى :
موهانداس غاندى : قديس . معلم . إنسان !

نظمى لوقا
من رفيق الأرض

كلمة في التسمية

أما أنها تراجيديا ففي مرجو المؤلف أن يكون مفهوماً أنه لا يجهل المدلول الأصلي للفظ التراجيديا وقالها التمثيل .
بيد أنه أطلق هذا الاسم على إنتاجه هذا ، لا باعتبار الشكل ، بل باعتبار المضمون .
وأما أنها هامة فهو يعنى هنا الهمس باعتبار الشكل ، لا باعتبار المضمون .

هذه المأساة

إنها مأساة الفراغ الهائل الذى يحول بين الإنسان والإنسان ، مأساة الجهل والإعصار وتوابعهما من سوء الفهم وسوء الحكم . إنه الميزان المحتل الذى ينصبه العرف الاجتماعى والقيمة الأدبية التى توزن بها أخلاق الناس وأقدارهم .

لماذا هذا الإنسان فاضل ومحترم ؟

ولماذا ذاك الإنسان ساقط ومبتذل ؟

ما القسطاس الذى به ينقل ميزان إنسان وتشيل كفة إنسان ؟
أى علم لنا بالفضل والسقوط ؟ أى حكم لنا بالسمو والهبوط ؟ أى

حق لنا فى احتقار إنسان أيًا كان ذلك الإنسان وفى ازدرائه !
نحن لا نعرف الناس إذ يبتنا وبينهم هذا الفراغ الهائل الذى يخلفه

المحصارنا في أنفسنا وإفراطنا في حبها ؛ حتى إنه ليس في قلوبنا مكان لأحد سوانا !

ولن نعرف الناس حتى نتقص نفوسهم ، حتى نكون هم ونحن في آن واحد وفي مستوى واحد ، ومتى أحببنا حق الحب فهمنا حق الفهم ، ومتى فهمنا قدرنا فهيات عندئذ أن نفوس ، وهيات أن نزدري ، وهيات أن نصم ولنلن منها تكشف لعبوننا مهاوى السقوط وحماة الابتذال ! لا معرفة ولا فهم بغير حب ، ولا حب بغير صدق ، ومن أحب صادقاً أنارت له شجاعة إيمانه بحبه الطريق ، طريق الهبوط عن جبل الأنانية ، والخروج من عزلته فوق قممها المثلوجة ، والتزول عن هالة تمجيد الذات ، تلك الحالة الجوفاء التي صيغت من أوهام الازدراء ، ومن صيغ التفكير والتقدير المخطئة التي ورثها فحبس قلبه وبصيرته فيها حتى استسلم للنعاس في ظل طمأنينة البلهاء . . !

هي الدعوة إلى الحب والصدق وشجاعة الإيمان . .

في هداها نعرف أنفسنا إذ نعرف الناس ، وفي ضعفهم وشقايتهم نعرف ضعفنا وشقوتنا ، وما أحرانا يومئذ أن نحب الضعفاء والساقطين لا حباً في الضعف والسقوط ولكن حباً في البشر ! في نفوسنا التي استيقظت وعبرت الهوة ، هوة الفراغ الأعمر الذي بيني وبينك ، ذلك الفراغ الذي أقناه كلانا كي يستطيع كل منا أن ينظر في وجه صاحبه ، ثم يبصق على الأرض وقد شعر أنه إنسان عظيم . . . !

على رسلك أيها الأخ !

لا تبصق على الأرض فأنت أيضاً من رقيق الأرض أيها الصديق . .
افتح عينيك أيها الأخ واستيقظ ، واعبر الهوة التي تحيط بك من كل
جانب . . وتحرر يا أخى بالحب .
فإن ذلك هو الطريق الحق والحياة . .

المخمور

حدث هذا ذات ليلة شاتية بعد منتصف الليل ، وقد أقبل بعدو .
ومعطفه الفضفاض المفتوح تملؤه الريح كأنه شراع سفينة ، ثم لحق بآخر
عربة في آخر قطار من فطر المترو . .

وجلس ، وسعل حتى طفرت إلى عينه الدموع وبصق من النافذة ،
ثم أغلق زجاجها القدر ، وشرع يستجمع أنفاسه المكروية وهو يدبر في
أرجاء العربة المترنحة عينيه الحماورين الكليلتين .

* * *

كاد يفوتني الملعون وهو الأخير . لكن الذنب ليس ذنبي ، إنه ذنب
«إسبيرو» الذي أراد أن يغالطني في الحساب . . . ماذا كنت أفعل
لو تركتني يا حبيب الروح ؟ يالك من غادر ! أوه ! لا تغضب ؛ هذا

مزاح يا جاد . . . آنت أيضاً كبتى آدم لا تفهم المزاح ؟ الأمر الله . . .
 حقلك على رأسى . . . وهذه قبلة على زجاج شباكك القدر !
 الله الله ! لسا وحدنا ياسيد مترو ! فهناك فى آخر العربة واحد ، بل
 اثنان يامترو ، الهامم تضحك لأنى قبلت زجاج شباكك ! أمسرور أنت
 بهذه الشبهة التى ركبتنى بسبك فى آخر الليل ؟ أما سعادة البك الذى معها
 فرجل فاضل . . « ثقيل » يعنى « له وزنه » إنه لا يضحك ؛ الضحك
 عيب طبعاً . . معلوم ، شىء لا يليق ! يارب سترك إنه ينظر فى رزانه ،
 واستهانة . . . إلى الرجل « المبسوط حبتين » الذى يقبل زجاج آخر
 مترو . . . !

مرحباً أيها الرفيقان - يارفيق آخر الليل . . . نحن وحدنا هنا ،
 ولكن شتان طبعاً أنتما وأنا : أنتما فى أول العربة - فالأول دائماً يكون حيث
 يكون أمثالكما - وأنا فى آخرها . . . وبيننا « فراغ » . . . فراغ تحترقه
 نظرات « إليك » الوقور محملة بالكبرياء والاحتقار . . . والشفقة
 أيضاً . . .

لماذا تنظر إلى هكذا ؟

أنا طبعاً لا أنتظر منك ردّاً لأننى لم أخرج سؤالى من بين شفقى ؛ فأنا
 أسألك هكذا بينى وبين نفسى ، لأن الكلام بيننا - أنا وأنت - عبث ؛
 فأنت فى « الأول » وأنا هنا . . فى « الآخر » . وبيننا « فراغ » كبير لا يعبره
 أحد . اللهم إلا الكسارى طبعاً والكسارى ليس أحداً ؛ إنه مجرد
 مستودع تذاكر .

لماذا ترددينى وترثى لى وكأنك تسألنى أى مخلوق عسائ أن أكون ؟ أى مفاجأة تحبونها لك الأقدار لو أنك عرفت جواب هذا السؤال ؟ فأنا يا صاحبى - ولا تعجب - رجل شريف

أى والله «رجل شريف» هكذا «مرة واحدة» كلا ! كلا ! ليس ادعاء ما أقول ، ولكنه الحقيقة بنصها ، فقد كنت يوماً على شاكلتك تماماً أعنى سيداً له وزنه ، له صفاته وأناقته ورزاقته ، يجلس حيث يجلس أنت ، أعنى فى المقدمة ، وينظر إلى من فى المؤخرة بزرابة وإشفاق . ثم . . . ثم وجدت نفسى فجأة أنقلب رجلاً آخر : أعنى الرجل الذى تراه الآن . . . «رجلاً شريفاً» . كيف حدث هذا ؟

قلت لك : إنه حدث فجأة ؛ فقد بدأت قصتى الفذة فى اللحظة التى أدركت فيها أن النجوم ليست فى مواضعها الصحيحة ، وأن الجهات الأصلية الأربع - الأربع هى حقاً ؟ ولماذا أربع ؟ - منحرفة عن اتجاهاتها ، وبعبارة أخرى : إن الجهات الأصلية ليست أصلية على الإطلاق . . .

أنقول ، إنك لا تفهم ماذا أعنى ؟
طبعاً يا أخى ، أنت لا تفهم ؛ فبيننا هذا الفراغ الملغون ، ولكنى سأحاول أن أفهمك . . .

أنقول ! لماذا أتعب نفسى فى تفهيمك ؟
هكذا لغير غرض . ألم أقل لك منذ البداية : إننى رجل شريف ؟
والرجل الشريف كما قد تعلم هو الذى لا يتقيد فى تصرفاته بالأغراض

النفعية . . .

أرى السخرية تزداد في عينيك وميضاً . . . على رسلك أيها
الأخ . . . وفر حديثك إلى نهاية الحديث ، وتعال معي لتبدأ من
البداية . . .

انتظر أولاً حتى أشعل سيجارة . كلا لن أعزم عليك ، فأنت رجل
« طاهر » : يعنى لا يدخن ، ولا يشرب الخمر ، ولا يقرب فاحشة ،
أو نقيصة . . . إلا باللغات طبعاً ، هذا مفهوم !

* * *

تريد طبعاً أن تعرف أين ومتى وقعت على هذا الاكتشاف الخطير ؟
أعنى أن النجوم ليست في مواضعها الصحيحة ؟ في أى مرصد ، وبأى
منظار !

اسمع ! أتعرف أين ينتهى خط المترو ؟ لا لا ! لا حيث ينتهى الآن .
بل منذ سنين . أجل عند هذا المقصف الخلوى البديع ، حيث يذهب
الطاهرون من أمثالك في أبهى زينة مع الطاهرات المصونات جداً
عقيلاتهم . . . وحيث تذهب أيضاً تلك النجوم التى ليست في مواضعها
في أجواز الفضاء . . .

والى هذا المكان ذهبت أنا أيضاً منذ ثلاثة أعوام ، وكنت وقتئذ
مثلك ، رجلاً طاهراً جداً ، وكانت معي المصون جداً زوجتى ، وجلسنا
في الحديقة ننظر إلى الأشياء وإلى الناس بعينين ساذجتين ، ثم تتقابل

نظراتنا ونبتسم فى شىء غير قليل ؛ ولا أخفى عليك - من البلاءة . . .
 البلاءة التى منشؤها هذا الفراغ المضروب بيننا وبين الآخرين . . .
 أتدرى ماذا كنا نشبه - أنا والمصون جداً زوجتى - فى ذلك الحين ؟
 كنا أشبه بصبيين جلسا على حرف قناة وفى يد كل منهما عصا طويلة
 فى طرفها خيط رفيع ينتهى بدبوس معقوف . ودليا العصا فى الماء ، بيد
 أنهما حرصا أشد الحرص ألا تتدلى أقدامهما فى الماء كى لا يبتل حذاءهما
 اللامعان . . . وكلما غمرت السنارة - واسمها فى اللغة الفصيحة الشص إن
 كنت لا تعلم ! - تبادلا النظرات والابتسامة البهيجة البلهاء . . . وأخرجنا
 السمكة الصغيرة ووضعناها فى الكيس الذى معها . . . ثم حملا الكيس
 فى آخر الجلسة ليأكل ما فيه مع طعام العشاء إن كان فيه ما يصلح
 للأكل ، أو ليلقياه للقطعة بامتعاظ إن كان شيئاً غير ذى بال . . .
 وإياك أن تهتف بهما : ما هذا الذى تأكلان أو ترميان لقطعة الجيران ؟
 أيجب أحدهما أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ . . .

فإنهما سينظران إليك بدهشة واستنكار ، ويقلبان شفيتها ويقولان :
 إن هذه إلا سمكات تافهة ، وليست مثلنا من بنى الإنسان . . .

كذلك كنا - المصونة جداً زوجتى وأنا - نصيد لمحات ممن نرى
 من الناس حولنا ، وكلما غمرت «سنارتنا» ابتسما فى سرور ، وعدنا
 بوطابنا الحافل آخر الجلسة إلى البيت ، ثم أفرغناه بيننا ورحنا نهش
 بلساننا ما تصيدناه من اللفات واللمحات ، فما كان منها دسماً استطبناه ،
 وما كان منها غثاً نفضناه ممتعضين ، ونحن نرمى من تصيدنا لفتاتهم

ولغاتهم بالتفاهة والخبثاء . . .

أكنّا حقّاً نشعر أنّ هؤلاء بشر مثلنا ؟ كلا : وإنما هم سمك في
ما يؤكل ، وفيه ما يعاف ، ولكنهم سمك على كل حال ، وليس
إحساننا بهم أنهم من « عالمنا المخصوص » .

سمك يعيش في الماء ، وتتصيد بالسنارة أو الشباك ، أو يمر بنا
فلا نلتفت إليه ، فهو على كل حال من مخلوقات البحر ، ونحن عنه بمعزل
عن كل شيء إلا أن نصيده فنأكله أو نرميه .

لهذا أيها الصديق كنت في أصيل ذلك اليوم - أنا والمصون جدّاً
زوجتي - نتبادل النظرات والابتسام . . . في شيء غير قليل -
ولا أكتمك - من السذاجة البلهاء .

وفجأة حدث الشيء الخطير . . .

وقفت أمامنا سيارة لا بالصغيرة ولا بالكبيرة ، ولا بالجديدة
ولا بالمستهلكة ، من تلك السيارات التي تحمل طابع حياة أوساط الناس :
فيها من علامات التنكير والتجهيل أكثر مما فيها من علامات التعريف
والتمييز ، شيء تفتححه العين كأصحابها ، ولا تقف عنده لمذمة
أو إعجاب .

ولكن « ما » هذا ؟ إنه صاحب السيارة قطعاً فهو مثلها . رجل
نصف ، في « رفره » الأيمن الأمامي أثر صدمة من روماترم ، وفي حركة
ساقه ما يدل على تراخ في « الست » ربما يستعصى على الإصلاح ، إنه
شخص ليس ذا بال . . .

ولكن «ما» هذه التى معه ؟ أقصد «من» هذه ؟

إنها ليست صاحبة السيارة ، محال ! فهى لا تشبهها ولا تشبهه فى شيء . إنها كالزهرة الندية ، كلها «طيبة» . ماكل هذه الطيبة فى عينيها الهادئتين كأنهما بحيرتان ؟ وفى حركات ذراعيها وهى تمشى ! ثم فى حركتها وهى تجلس متضائلة كأنها تعتذر لعدم استطاعتها احتلال مكان أصغر من هذا الذى تشغله فعلاً - وما أقله وما أكبره من مكان ، إنه مكان «غنى» . . . المكان الذى تحتله الزهرة الطيبة وسط أديم واسع ، واسع ، ولكنه فقير غير موجود ؛ لأنه «فراغ» أيها الأخ . . . !

وفى رقتها وفى طيبتها - انظر ! إننى لا أستطيع أن أقول فى «رقعة» وفى «طيبة» . هكذا على الإطلاق وعلى التنكير . . . لأن طيبة الذات الحية إنما هى أيضاً ذات ، لا تنفصل عنها لتندمج فى معنى مشاع ، لا يتسمى لأحد . كلا يا أخى كلا ! فقد كانت طيبتها هى ورقتها هى - لمستها وهى تحرك وجهها ، وتوجه كلامها الذى لم أسمعه - ولكنى انفعلت به

نحو «الآخر» . نحو السيارة ، أعنى رجل السيارة الذى يشبه سيارته وتشبه سيارته ، فنقلت نظرى إليه - فإذا هو جالس هكذا . . . مثلك أنت الآن أيها الأخ - ومثل أيضاً فيما مضى - كان مملوءاً بنفسه معتصماً بها لا يريد الخروج من قلعها ، ويظل من كواتها الحصينة فى حذر وفى صرامة ، فينظر لكل شيء شذراً . . . وفى بلاهة أيضاً - وقد تكون النظرة الشريرة ، كالنظرة الساذجة على السواء فى أنها بلهاء . . . بلهاء بسبب هذا الانحصار فى قلعة الذات ، وهذا الفراغ الذى هو الخندق المحيط

بالقلعة من جميع الجهات . . .

طلب شراباً كآسين من الويسكى بالصودا . . . ثم قال لها شيئاً ،
فرايتها تنهض ، وتحف به حانية ، ثم تمضى خارجة لتعود بعد حين وفي
يدها قرطاس به أقراص من الطعمية ، وكعكتان محمصتان مما اشتهر به
مخبز درويش القريب من ذلك المقصف . . .

وكان كيانه كله - وهي تخدمه وتقدم له « شهوة بطنه » ونزوة نفسه -
يفيض بالحنان ، ويحيش بسعادة الإعطاء والبذل ، وكما يطيب ينبوع
الطيب بالفيض الرقاق ، وكما يطيب ضرع البقرة الطيبة بالندروهي تنظر
بحنان إلى عجلها الرضيع . . .

أما العجل الأشيب المتجهم فكان يرمقها وهي تفعل بنظرة تفيض
تنازلاً ، ويشيع في كيانه السرور العميق الذي يبعثه الزهو بالامتلاك . . .
وتمللت في مجلس ضيق النفس ؛ لأنني أدركت أنها المصونة جداً
زوجته . . . ولأن حاسة التناسب الكامنة في أعماق أزعجتها هذه المفارقة
الوقحة : البقرة الطيبة تنظر بحنان إلى عجلها . . . ولكن عينها عمياوان
لا تبصران ، فالعجل قرد عجوز له طقم أسنان ، ويقف في قلعة ينظر
منها شراً ، ولكنه يمد رأسه الأضلع الكثيب من كونها إلى حيث تقف
البقرة الطيبة - مقيدة بالسلاسل - خارج خندق القلعة ، فيمتص
ضرعها . . . ثم يقهقه - كما يستطيع قرد عجوز دون غيره أن يقهقه
ضاحكاً من البقرة الطيبة العمياء التي تحاله على الدوام عجلها الوليد
الذي لست أدري أين طوحت به الأقدار . . . ٢

من يدرى لعله لم يولد قط . ولكن هذا القرد الخبيث استطاع أن
يُجذعها عن نفسها ويغرر بطيبة قلبها ، فأوهمها أنها حملت ،
وولدت . . . وهي لم تزل عذراء . . .

عذراء ؟

بالها من كلمة بلهاء ! كلا ! بالتأكيد ! إن قلبها قلب أم ، وما عدا
هذا ليس بهم ، وقداسة هذا الحنان وهذا البذل هي هي التي تضعها في
السما . . . ولو كان مكانها الفعلي في أدنى درك من الخضيض .
وأحييت رأسى ، وقد تنبه في أعماق لتلك اللحظة دين جديد ،
وامتلأت نفسى بخشوع العبادة ، فأغمضت عيني هنية لأتعمق هذا
الميلاد الجديد ، ثم فتحتها ؛ لأتملى مرة أخرى ذلك المنظر الذى أقض
ذوقى برهة ، وقد سكنت نفسى للذى وراءه من إحساس بعيد يرضى عنه
الجمال . . . بل إنه الجمال ؛ لأن الحقيقة فيه تتسامى فوق الواقع ، فوق
ما هو خطأ ، وما هو صواب ، ليستقر في عالم لا انقضاء له ، عالم حس
الجميل وحس المقدس فيه شيء واحد . . .

وفي هدوء لا تعكره رغبة ، ولا يعكره حسد ، ولا يعكره شيء -
رحت أنظر وأتعمق وكأني أحلم . . . إلى أن نهض ، فبادرت تسابقه
للنهوض ، وتحف به حانية طيبة إلى سيارته الكالحة التافهة . . . ثم اختفيا
عن الأنظار . . .

وهست لزوجتي أن تقوم ، وقت أسير بجانبها إلى البيت ، وأنا أرى
للنجوم من فوقنا طعماً آخر . . . طعماً هادئاً عميقاً ، لا علاقة له

بالزمن . . . لقد رأيته . . . « طيبة » . . .

ونظرت إلى زوجتي ، ورأيتني طيباً وأنا أنظر إليها ، فقد تفجر نبع
الطيبة في قلبي ، كأنما لمستُه عصا مسحورة ، فراح يفيض على كل
شيء ، وعلى كل إنسان . . .

وجلست في شرفة دارنا بجوار زوجتي ، وأحسست للمسات أناملني
على ذراعها البعيد عني وقعاً هيناً مطمئناً . . . وشعرت أن هذه الزوجة
قريبة مني جداً ، أقرب مما كنت أحسبها يمكن أن تدنو . . .

وباركت السماء ، وباركت الأرض في تلك الليلة لأن كل شيء كان
طيباً جميلاً .

أتدري ؟

كنت قد سلخت سنوات أتوجس - هكذا لغريسيب - من الموت ،
ولا أغمض جفني ليلة إلا على توجس ومضض .

وفي تلك الليلة لم يخطر ببال الموت . . . لأنه مات !

مات ذلك الموت الذي كان يقلقني ؛ فليس للموت وجود في ذلك
العالم الذي رفعت لي أبوابه فدخلت على غير انتظار . . . إنها السكينة ،
وأني ينشأ الزمن أوينقضي ولا حركة هناك ولا فلك دوار . . . ؟

• • •

وكان اليوم التالي يوم جمعة ، ونزلت القاهرة لبعض شأني ، ثم
عجلت بالعودة قبل الظهر بأكثر من ساعة ، فأدركت الملعون الذي نحن
فيه الآن - أعني المترو - وفرحت مرة أخرى حين رفعت عيني فإذا قبالي

فوق المقعد المواجه لى . . . يا أولياء الله ! هاتان العينان الصافيتان كأنهما
البحيرة الساكنة . . . والطيبة . . . وريح قلبى لهذه الطيبة المغرقة التى
تفيض على الدنيا بكل ما فيها ومن فيها .

ووجف قلبى المسكين ، وخشع طرفى ، ولكن الإشراق شاع فى
كياى كله وأنا أرجع فيها طرفى الخاشع ، ولحت نظرى ، ولم يفتها ما فيها
من خشوع ، فقد رفت نظرتها على وجهى كما ترف عين الأم على صغيرها
اللاعب بين لداته الصاخين ، وانقشعت نفسى ، فباركت السماء ،
والأرض . . . وقطار المترو !

وتحرك هذا المترو المبارك بنا محطة وأنا لا ألقى لمسيره بالا - أين هو
وأين أنا - ثم محطة ثانية وقبل أن يبلغ المحطة الثالثة تمهل ، ثم ربض فى
مكانه لا يتحرك . . . فتنهت لوجوده .
خيراً يا عم مترو؟

وأجاب عنه السائق ، وبطنه يهتز ، وإن ظل وجهه جامداً
لا اكتراث فيه ، إن تبار الكهرباء انقطع .

وتبادل الركاب النظر ، وتبادلنا النظر قبلهم . فإذا فى عينيها مواساة
واستسلام للواقع كله سباحة وصفاء . ثم نزل معظمنا . وكنت فى زمرة
النازلين . وقد رأيتها تنزل أمامى ، ووجدت نفسى كالتائه لا أدرى ماذا
يجدر بى أن أصنع فى هذا الموقف بالذات ؟ ووقف سائق سيارة أجرة
وأشار إلى هل أركب ؟ ووجدت نفسى متورطاً أفتح باب السيارة
وأركبها . . . وإذا بابها الآخر يفتح . وإذا . . . من بحق السماء ؟ هى !

هى بعينها ، ودخلت واستقرت وهى تبسم لى بعينها الطيبتين ، كأن هذا هو مكانها المفروض . . .

وتذكرت تلك النظرة ، تذكرتها جداً ، إنها نظرة الطيبة والبذل والحنان التى رأيتها فى عينها وهى تحف بالفاضل جداً زوجها فى المقصف الخلوى بالأمس .

وقال السائق بصوته الأجلش الذى فيه من الاقتحام أكثر مما فيه من الحداقة التى يخالها فى نفسه :

- مصر الجديدة طبعاً . . .

وجف حلقى فلم أجب ، لأن عقلى كان فى شغل عنه بالداهية التى دهنتى على غير انتظار ، ولم أدر ماذا يجب أن أصنع بالضبط ؟ فالتفت وقلت لها ، وأنا أغض فى نظرى كالمعتذر عن وجودى أنا إلى جانبها :

أ . . . أهلاً وسهلاً . . .

ولم يفتح الله على بعدها بشيء . . .

أى حق لى أنا أن أكون هنا فى جوارها ؟ أجل أنا الذى ركبت ، ثم ركبت هى من تلقاء نفسها . ولكن ما قيمة هذا الواقع الحسى السخيف ؟ إن هناك واقعاً آخر أسمى جداً من هذا الواقع وأصح : واقع عالمها الطيب . واقع الموجودات بحقائقها لايزماتها ومكانها . وهذا الواقع هو الذى يجعل الفارق بينى وبينها . . . رياه ! كيف لى بقياس هذا الفارق !

هى فى هذا الواقع تدى وضياء ، وأنا . . . تراب مهين . . . !

وازدادت تضاملاً فى مكافئ ، وغمر الخشوع كيانى ، وفاض عنى -

هذا على الأقل هو المفروض - إلى السائق . . . فأنا وهو هنا من طينة واحدة . . . غرباء في بقعة مقدسة بين سائر البقاع . . . !
وبصوت رخيم طيب وبمنظرة تساؤل طيبة سألتني هذا السؤال البريء :

- هل تريد أن نذهب عندك ؟

وحملت مصعوقاً حاملة جانبية طبعاً . وفطنت إلى استهواي ،
فأسرعت تربت بأنامل هينة لينة مترفقة على ركبتي تسرى عني ، وهي
تشيع برأسها البديع كأنما تطرد بهذه الحركة هواجسي . وابتمت
ابتسامة من قدرت من قبل الاحتمالات كافة ، فكفتني مؤونة المم :
- عندى إذن . . . قل له يذهب إلى الشارع . . . ، رقم . . .
وانكشيت في مقعدى ، واعتزيت قشعريرة من حس أناملها ،
فأبعدت ركبتي ورحت أحملت كالمحموم في وجهها ، وقد جبرنتى هذه
الطيبة : وشككتني فيما سمعت بأذني ، فابتسمت لها ابتسامة عريضة
مغتصبة ، اعتذر بها في خزي شديد عن هذا الذى دسسته عليها أذني
المتجنبة العابثة الخرقاء . . .

مستحيل يا هذا ! مستحيل ! إنها هنا . أجل ! هذا مفهوم . . . ثم
ماذا ؟ إنها الشركة في الطريق طبعاً . ألم تكن من قبل في المترو ؟ ثم تعطل
المنكود ؟ وها نحن أولاء في السيارة إلى وجهتنا المشتركة ! مصر الجديدة ،
كما يحدث كل يوم حين يتشارك الناس عرضاً في سيارة الأجرة إلى هناك .
ولكن عنوانها يا أخى ، بم تفسر عنوانها ؟ . . . إنها فعلاً طلبت مني أن

أدلى به للسائق . . . وهذا أيضاً مفهوم يا بهيم ! فلا بد طبعاً من إعطاء عنوانها للسائق كي يقف بها عنده ، فتتزل هناك ، ثم أنطلق أنا لوجهتي . . . أو كنت تحسب السائق يعرف الغيب ؟ ألا إنك لعتل !
لاشك أن الأمر كذلك فعلاً . . . أما الباق فخدعتني فيه أذن قبحها الله ! ما أظنها إلا أباحث نفسها اليوم للشيطان فأتخذها مطية ذلولاً . . . ويحيى ! كيف أعترض عنها ؟

وببلاهة الحزى والحيرة ابتسمت مرة أخرى وغمغمت :
- أهلاً وسهلاً . . .

ولم يفتح الله على بشيء آخر ، لأنى كنت مشغولاً بعد ذلك ببلع ريتى ، وباللدينا التى تدور من حولى ، وبرأسى الذى يطن .
ماذا حدث للدنيا ؟ ألم نتصالح بالأمس فأباركها ، وأبارك السماء ؟
وتذكرت عندئذ فى الأساطير الذى استبواه بهاء الشمس ، فلما صنع الأحقق لنفسه جناحين ليطير إليها أذاب وهج الشمس غراء الجناحين ، وسقط صريعاً مهشماً على أديم الأرض البليدة التى غادرها .
ويحيى ! كان ينبغى - على ما قرأت من أخبار الأولين والآخرين - أن أكون أحجى من هذا الأحقق المأفون ، فلا أدنو من قرص الشمس . . . وأكفى بيهاثها من بعيد ، فلا ألومن الآن إلا نفسى . . .
ونضح جيبى عرقاً ، عندما هدأت السيارة من سرعتها ، ثم همت بالوقوف . . . فالت على كفتى بحركة طبيعية جداً مترفقة جداً . وهمت فى أذنى :

- أعطه أجره ! وتأبط ذراعى وأنت داخل من الباب ، ولا تلق
إلى البواب بالا . . . وإن سألك فقل له إننا زوار المهندس فلان فى
المسكن رقم . . . ولكنه لن يسألك إلا إذا كان يريد شئاً . . .
وغمرت بعينها غمرة خفيفة جداً بريئة جداً كما يفخر الطفل ابن
عامين مسروراً بأنه تعلم غمرة العين !

ولم يكن البواب أمام الباب بل كان فى رحة خلف المنزل ، يصلها
بمدخله باب منخفض ضيق أطل منه برأسه حين سمع وقع الأقدام ،
ولكن لم يلبث رأسه أن انسحب بسرعة إلى الداخل . . . فصعدت معها
وأنا أدق النظر فى درجات السلم وجدرانه تدقيقاً ملحفاً كأنى أستجدى
الإحساس باليقظة والواقع من هذه الجمادات المحيطة بى .

وفتحت باب مسكنها بمفتاح كان فى حقيبتها ، ودخلت وراءها
مسرعاً ، كأننى أتلهف أن يحقق داخل ذلك المسكن رجائى الذى خيبته
السيارة والسلم والجدران فى إمدادى بسند دامع لحقيقة محسوساتى . . .
يخرجنى من دوامة حيرتى التى ألفتنى فيها هذه الابنة الطيبة ، فعالم طبيعتها
أثبت وأؤكد فى وجدانى من جميع تلك المحسوسات .

ورأيت أريكة رحية نظيفة عليها فاش من الكريتون أحمد الله أنه لم
يكن ناصع البياض ، إذن لكان نكرة غفلا يزيد متاهتى حيرة
والغازأ . . . بل كان منقوشاً عليه أوفق رسم يمكن أن يتسق مع طيبة
عينها وبرائها . رسم قطيطات صغيرة فارسية تلعب فى أزهار حديقة
حافلة بالزهر والرياح . . . تتمرغ بينها وتثواب على أعوادها الرهيفة فتتواءم

بثقتها وفي عينيها وهي تب ، وهي تقع ، وهي تفرغ ، وهي تتحفر -
 تلك البراءة التي لا تحمل أثراً من حقد أو ألم أو غضب أو تأثم !
 فرحت جداً بهذه القشيطات الصغيرة اللاهية البريئة حتى لقد قبلتها
 وعانقتها بوجداني امتناناً لوجودها هنا وشكراً فقد كانت هي
 « الشيء » الدامع القوي الذي التمسته ليبرهن لي على أن أحد العالمين
 اللذين يتنازعاني هو الصحيح وأن الآخر زائف ، موهوم .
 هذه القشيطات من عالمها ، من عالم عينيها وطبيعتها . . . إنها الشيء
 الوحيد الذي من عالمها حقاً . من دون آلاف الأشياء الأخرى التي زيفها
 على إحساسي وسمعي ، ونسبها إلى الطيبة البريئة الحسنة . . .
 ولكن أين هي ؟ . . .

ورأيته تدخل ، كواحدة من قشيطاتها المتواثة . . . حتى لتوقعت أن
 تب على شيء مما حولنا ، لكنها لم تفعل إلا شعرها المرسل ، فقد نواب
 كقطيع من الغزلان : أما هي فجست على الأريكة الوثيرة ونظرت إلى في
 بساطة مطمئة . . . جعلتني أخلد إلى مكاني . ولا يخضر لي أن مقولة
 المكان والأين يمكن أن تنضج على موضع آخر . . . ذلك أن « العالم »
 كله انسحب بهذه النظرة الصافية المطمئة من وجداني بكل ما في ذلك
 العالم من مكان ومن إضافة ومن امتلاك ومن قلق . . .
 « هنالك لا الشمس دوارة . . . ولا الأرض ناقصة زائدة ! »
 ها هنا الأبد !

ونظرت إليها نظرة امتنان وتعني . . . كتعلق التائه بمنقذه وقد أخرجه

من تيه مغرق لم يكن يرجو منه مخرجاً إلى يوم يعثون . . .
وانفرجت شفتاها عن شيء ، ولكنى لم أسمعها ، لأن سمعى كان
مخدراً غائباً ، إذا استأثر بالحضور وجدانى وعيائى . . . لم أكرث أن أعلم
ماذا عساها قالت ، أى قيمة لهذا ؟ أى معنى للألفاظ حيث عالم المعانى
خالصة متقومة بأعيانها بغير صيغة ، وبغير حوافر فاصلة ؟ . . .
لماذا تصر أن تتكلم أو تتحرك أو حتى أن تنمسى ؟ إن الوجود
ها هنا . . . وبمجرد الحضور كاف كل الكفاية .

ولكن شيئاً اعترى نظرتها ، ربما لأنى لم أسمعها ، أو لم يبد على
وجهى أنى سمعتها ، ثم مدت كفها برفق فوضعت فوق كنى ، ورفعت
صوتها قليلاً كأنما لتنبهنى من سبات :

- ألا نشرب شيئاً أولاً ، عندى هنا كل شيء : أم تفضل أن
تتحفف من ثيابك ؟ أعددت لك هناك منامة نظيفة فى تلك
الحجرة . . .

وقرعت الأجراس فى رأسى . أجراس الحريق ، ونذر الخطر التى
تضمها بابل بأسرها ! وطن النحل وتداقت أسرابه ، ودوت
الطبول . . . آلاف منها فوق آلاف . . . ودار الدولاب ، ودارت
المقاعد ، وراحت قطع الأثاث ترجس من حولى فى رقصة همجية على
ذلك « الحجاز » المحموم !

وطأطأت رأسى كسير القلب مقهوراً ، ورأيت أصابعى تعبت بالغطاء
المزركش بالقطيطات عبثاً عنيفاً ، وكان ينبغى أن يمزقه . . . لولا أن

تناولت يدي في يديها ، ونظرت في عيني - وريح عقلي ! - بطيبتها البريئة
الحانية :

- ماذا بك ؟ أتشكو شيئاً ؟

ولم أشعر إلا وقد طفرت من موضعها بجوارى ثم عادت في أقل من
رجع الصدى ، وفي يدها كوب أدنته من شفتي ، فجرحته مرة واحدة في
استسلام .

وابتعد زنين الأجراس وقرع الطبول رويداً ، وهمدت قطع الأثاث في
مواضعها ، ولكنها لم تفقد شيئاً من نشاطها وقوتها وهي ساكنة ، إنها تبدو
على أهبة كاملة للعودة إلى رقصتها الوحشية ، عند أي إشارة من غير أن
تحشى تعباً أو نصباً ، وشعرت تماماً بوطأة تهديدها الصامت ، كما يشعر
المكروب بفوهات بنادق خفية لا يراها من حوله الناس ، ولكنه يعرف
جيداً ما تعنيه هذه الفوهات .

- اسمع . قم الآن وانصرف . . . لماذا لم تقل لي إنك تشكو من
قلبك ؟ . . . يجب ألا تتعرض لخطر نوبة وأنت هنا . . .

- قلبي ؟ . . . كلا ! ليس به شيء ، ولم أعهد عليه نوبة قبل
الآن . . .

- إذن ما هذا ؟ . . .

وبدأت الحيرة في وجهها تحتل موضع الخوف :

- ليس من المعقول في سنك أن هذه أول مرة . . .

ثم بسطت يدي اليسرى وحملت في دبلّة الزواج ، فجذبت يدي

وأبعدتها من غير تفكير ، فرفعت عينها إلى عيني ، وليس فيها إلا سكون
البحيرة العميقة في براءتها التي لا تدرى لها أغوار . . .
وشعرت في هذه اللحظة بحفاف حلقى وبالعرق الذي يتفصد به
جيني :

- جرعة أخرى من فضلك . . .

واستجمعت بعدها في شيء من السهولة أطراف جأشي الشتيت . . .
وجعلت أبحث عن « طرف الحيط » الذي أبدأ منه الحديث
المرهوب . . . الحديث الذي يتحدى براءة عينها وطبيتها ، ولكنني لم أعثر
على طرف للخيوط ، وخطر لي أن أعالج الموقف على طريقة مصارعى
الثيران ، فأقبض على قرون الثور ، ولا ألتفت إلى زيله أو أذنيه أو
خوافره .

طبيتها ! هذا هو قرن الثور !

واندفعت :

- المسألة أنني . . .

وتوقعت أن تساعدني بكلمة أو بنظرة ، ولكنها استمرت تحديق ببراءة
الطيبة الخالصة ، فبلعت ريقى وقلت بسرعة :

- طبيتك ونقاؤك وطهر عينيك وكل ما فيك هذا هو السبب !

ونظرت إليها متوسلاً وقلت :

- هل فهمت ؟ . . .

وهزت رأسها بثبات وطيبة وصراحة . . . أن لا !

- أعنى أنى رأيتك بالأمس فى الكازينو مع ذلك الفأر العجوز
الأصلع . . . ولم أكن أتوقع إطلاقاً . . .

ولم أدر كيف أعبر عما فى ذهنى ، فنظرت حولى وأشرت بيدي ، كأن
الأثاث والمكان فيهما البيان الكافى عما عجز عنه لسانى الكليل . . .

ولأول مرة رأيتها تقطب حاجبيها ، ولحمت بوادر نوء يتجمع على أفق
البحيرة الساكنة الأغوار ، فأسرعت أضع يدي على ذراعها متوسلاً :

- أرجوك ! إنما عنيت أنك لست من هذا المعدن وأن النجوم

مكانها فوق رؤوسنا ، هناك فى السماء تتطلع إليها ولا ندركها ، تلهمنا ولا
تملكها ، وليس مكانها فى الطين والوحل تحت الأقدام مع الخنافس

والصراصير والهوام . . . وأنى روعت لهذا الانقلاب فى مواضع
الأفلاك . . . أشرفت على الجنون فعلاً وصدقاً ، وإنى مستعد أن أموت

غداً بل اليوم لو ضمنت أنى أعدت بهذا الثمن التافه الكوكب التائه عن
مكانه إلى فلكه المرسوم فى أجواز السماء . . . فأى ثمن يهون جداً بجانب

هذا الغرض . . . ؟

- النبيل . . . هه ؟

وبسخرية صامته لا توصف استطردت فى هدوء مقصود :

- تريد لتفقدنى . . . هه !

وشهرت فى وجهى عينين لا تطل منها الطيبة المطلقة غير المتعينة . بل

يطل غضب لو انفجر لكان بركاناً وإعصاراً لا يبقى ولا يذر . . .

- كلا . أنفذك أنت ؟ ولماذا ؟ إن النجوم ربما لا يضرها أن تكون

في الأوحال ، فهي نجوم على كل حال ، وإنما أريد لأنقذنا نحن البشر .
أنقذ نفسي ومن على شاكلي من الناس . . . هناك شيء اسمه المنطق ،
منطق الأشياء ، به تتعين مواضعها ، وبه يتعين أن تكون السماء موضع
النجوم الطبيعي ، أما هكذا . . .

وأشرت مرة أخرى بيدي فيما حولي كأن في هذا المكان الذي حولنا
بيان يغني عن كل بيان واستطردت :

- . . . كلا . هذا مستحيل ؟

- مستحيل ؟ ما هذا المستحيل ؟

- مستحيل طبعاً أن تكون النجوم في مكان ليس هو السماء ! أترين

العقل يبقى لأحد من الناس لورأى السلحفاة تطير بصدفتها ، والجبل يغني
كالبلابل ، والكروان يعيش في الوحل ، والحنازير تبنى عشاشاً على أعلى
الأشجار ، ولا تكاد تمكث على فن إلا طارت منه إلى فن ، وهي تشدو
في الهزيع الثاني من الليل ؟ عالم مجنون هذا العالم الذي تريد أن تفرضيه
على الناس ، خليك أن يحتم كما أوشكت أنا أن أجن . . . ! وهذا هو ما
أفرق رعباً منه ، وأريد أن أجنهم إياه وأنقذهم من مغبته ، ولو دفعت
ثمناً لذلك حياتي كلها ، فما أتفه حياتي وحياة أي إنسان بجانب المنطق
باسيدي ! اقتليني ولكن دع المنطق يحيا . . . من أجل العقل يا سيدي
دع الوحل للخنافس والصراصير . . . وعودي إلى مكانك مع النجوم !
ورأيت عينها تجوبان طولاً وعرضاً ، نعم رأيت ذلك في عينها ، ولا
أدرى كيف أدركت أن لي طولاً وعرضاً يستأهلان القياس بعينها ؟ فإني

وددت ساعتئذ لو أمكننى أن أبلغ من الضّالة فوق ما أحسست أنى بلغت . . .

وخيل إلى برهة أن وقدة غضبها خمدت ، وأنها ظنت بى الجنون . . . أوريما ظنت بى الشعر ، فقد رأيت أوصالها تجمد ، وملامح وجهها تتحجر ، كما يتحجر الكائن الحى إذ تفارقه حرارته عندما يتحول إحساسه إلى العداء أو الازدراء ، وسمعتها تقول بصوت قاس فى خفوته وهدوئه :

- أهلاً وسهلاً !

فأحسست أن قطة متممة أكتشفت داخل الجيوب القديم الذى كانت تداعبه بكفها فأراً صغيراً . اكتشفته فجئته ، وهى تدرى تماماً ماذا هى صانعة به بعد حين . . . فانتابتنى رعدة شملت بدنى كله ، وتراجعت قليلاً وأنا أرى عينيها تتوهجان كجمرتين !

- أنت إذن واحد منهم . . .

- منهم ؟

- منهم ! من الصالحين جدّاً المحترمين جدّاً النقيين جدّاً الذين لا يقارفون معصية والذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ! مشيهم على أرض طاهرة فى ثياب طاهرة ، لا تريد عينهم أن ترى إلا جميلاً ، ولا تريد أنوفهم أن تشم إلا جميلاً ، ولا تريد صدورهم أن تتنفس إلا جميلاً ، أما الخنافس والصراصير . والديدان والحنازير - فمن عالم الوحول . الوحول التى ليس لها فى عالمهم مكان معلوم ، فهى أشياء

خارج الدنيا حيث البكاء والعويل وصرير الأسنان ! ... كم أكرهكم
أيها الأطهار الأنقياء ! كم أكرهكم ! كم أكرهكم !
ورأيت مغالب القطة تبرز كالقضاء ، لتنقض على الفأر الصغير
المنهار . . .

« أكرهكم وأتمنى لو خلا العالم منكم ، ومن شمسكم النظيفة
الساطعة ! أتمنى لو شمل العالم كله بنجومكم وأفلاككم طوفان من
الوحد والظلمات ، فترث الخنافس والدود والصراصير عالمكم هذا
الملعون !

« أنتم وباء الأرض لا ملحها ! كم أكرهكم وألعنكم !
« أحسبك وقد خيل إليك غرور نقائك تظنني أكره من يقتضوني في
كل خطوة ما تأنف أنت وأمثالك منه ، ويرغموني على التمرع في الوحل
بلا انقطاع !

« ربما ! ولكنهم أيها اللبيب يتمرغون معي ولا يجرمونني شرعية الشعور
بأن معدني ومعدنهم واحد ، وأنا سواسية في حياة الوحل . . . فنحن
جميعاً هاهنا خنافس وديدان وصراصير ، لا نور بيننا ولا عطور . . .
« وتهداً سورة الداء . ويسكن الصدر إلى مكون العلة . . . فهاهنا
عالمنا الذي لا عالم سواه ! ها هو ذا معدنتنا الذي لا معدن سواه . . .
« ثم يتسلل شعاع شيطاني من أضواء عالمكم الشمس . وينفذ نفس
طلق من عالمكم النقي المضمخة أنفاسه بعير المروج الفيحاء . . .
« وتتحرك العلة أيها الغريب . ويتتري الجرح بالتلف والصديد . وتثور

بالسعال الدامى الرئة المعطوبة .

«وتشعر الصراصير أيها الغريب أنها ليست إلا صراصير ، وأن حياتها سم وكرب وذل وهوان تشعر بتفاهتها وقسوة مصيرها المحتوم
«أى أمل الصرصار أن يغدو عندلياً أيها الغريب ؟
«كلا ! فكل حظه من العندليب وشده أن يضيق بوجوده وقد أدرك ما تفاهة هذا الوجود !

«ليس القضاء هو الذى يظلمنا أيها الغريب ! ليس الفاسقون هم الوحوش التى تنهش كيانتنا المنكود ، وإنما الذى ينهش كيانتنا ويدمره ، ويقطر فى وجودنا المرارة والتفاهة والنقمة هو أنتم أيها الأطهار الأنقياء . . . !

«أنتم زبائنتنا أيها الغريب ! نظافتكم ، نقاؤكم طهركم هى المهل الذى يسمم حياتنا ويكوى قلوبنا بسعيره المجنون !
«نظافة كل نظيف منكم سوط عذاب يهرى جلودنا ، ويعيرنا بوجودنا الرجيم .

«لماذا وجدتم ؟ لماذا ابتليتنا بكم ؟

«كلا ! لا نريد رحمتكم ! لا حاجة لنا بها ! إنها تؤدبنا ! مجرد وجودكم أذى لنا ! أما الناهشون ! أما الباصقون ! أولاء نارهم برد علينا وسلام ! لأنهم منا ، لا يأنفون منا ، ولا يزرى وجودهم بوجودنا ، لهذا نشعر لوجودهم بالأنس والعزاء !

«ولهذا أيها الغريب أتلقف العشير منهم بالايئاس وفرحة ذى القربى !

إنه شقيق ! إنه مواطن في دنيای ! إنه مدهوم آخر تحت عجلات قضاء
ألقاه في الطين ! فيه يتنفس ، وفيه يتقلب ، فليكن له فيه من صدری
أنس من وحشة ، ومهاد من وعورة ، وری من ظماً وظل ظلیل . . . !
« هذا أيها الغريب ما دعوته طيبة ونقاء ، وكوكبا هوى من العلياء إلى
الحضيض ! إنه ليس إلا أخوة وأمومة ، أو ما شئت من ألفاظ الأنقياء
الأطهار ، ولكنه لا ينبجس إلا لبني دنيای . . . الأدنياء !

« وأما أنت أيها الغريب فأليك عني ، وعن طيني وأوحالي . . .
بنقائك الظالم وطهرك الغاشم ونجومك المختالة المتشبهة بأجواز السماء ! » .
وحملت فيها أيها الصديق ، حملقت في البحيرة التي ثارت أغوارها
بعد سكون ، وانفجرت في قاعها البراكين . . .

ولأول مرة رأيت نفسي على حقيقتها الجديدة ، رأيت نقائي
واحترامي جريمة ووصمة ينبغي أن أكفر عنها إلى أن أموت !

أي حق كان لي في تعيير المسحوقين تحت أقدام القضاء بأرزائهم ؟
أي حق كان لي في تعذيبهم بطهرى ونقائي ، كما تعذب الطاوین
الساغين بصور المآذب التي تعلم أنهم لن يملثوا منها بطونهم ما عاشوا ؟
أي مواساة للمضروين بالعمى يستطيعها البصير سوى أن يغلق عينيه
إلى الأبد ، ويغدو رفيقاً لهم يتلمس معهم الطريق ، في وجوده أنس
لهم ، بلا تذكرة ولا استيحاش . . .

. . . لم أخجل من شيء كما خجلت من نقائي واحترامي وأنا أتعثر في
أذيالها هابطاً السلم الذي كأنه لا يريد أن ينتهي بي إلى عرض

الطريق . . .

. . . لم أستطع أيها الصديق إلا هذا الضرب من التفكير عن تحايلى
القديم بنقائى واحترامى ، وهو التفكير بالخمير وإهدار الوقار . . .
شئ فى طبيعتى لم يمكنى من أى تفكير آخر على كثرة ما
حاولت . . . ولعل هذا الشعور الفطرى لدى النساء هو الذى جعل
المحترمة جداً زوجتى تتعلق بى ، وثقت أننى لا أخونها على سوء مظهرى
وسيرى فى الناس . . .

إنها تستقبلنى كل ليلة هكذا فى صبر صامت ، وأرى فى عينيها
الفاضلتين كيف تتمجد وتتغذى كبرياء صلاحها بالثبات على محنة هذا
الزوج .

ماذا تقول ؟

أشرب الخمر لأنسى زلتى إذ تمنيت ذات مرة امرأة ليست حليلتى ،
ومن كل نفسى !

اسمع يا صديقى ! أنا لا أجهل ترهات عنكم النفسى الحديث ! فأنا
كما قلت لك رجل شريف ، ولهذا لن أنكر أننى كنت يوماً حلس ثقافة
واحترام ونقاء ، ولكن تاب الله على من هذه البلية ! . . . إني رجل
ثائب أيها الرجل ! رجل يكفر كل ليلة عن إثم تحاييله القديم بنقائه
الأجوف وغفلة احترامه الخاوى . . .

إني أعتذرياً رجل عن كل لحظة قضيتها قذرى فى عين كل مهيفض
الروح يلقيه ضعفه فى الأوحال ! كلما تذكرت غرورى الأبله بسلامتى

وعافيتي بين المنكوبين والمصابين انتفضت خزيًا وبكت روجي وأنت في
طوايا كياني ندما . . . !

أنتهكم بي أيها المحترم ؟

أقول : إن هذا يذكر بك قصة القديس المجذوب الذي انطلق ليعيش
في جزيرة المجذوبين باختياره ليرفه بجذامه العمد عن آلامهم غاية الترفيه
المستطاع ، وهو الترفيه بالمشاركة المقصودة في العلة ، والآفة والنبد
والحرمان ؟

على رسلك أيها الصديق !

ليس في الدنيا قديسون ! صدقني أنا ! هناك فقط محزونون مثلك
يا محترم ، ثم هناك من هم مثلي أنا . . . بشر كسائر البشر ، ولكنهم
شرفاء ! جهدهم منصرف إلى تحصيل حقيقة البر وجوهره ، متخلين في
سبيل ذلك عن سمعة البر ومظهره . . . مظهره المحترم الأنيق ، أيها السيد
المحترم !

بل عفوك ! فقد اختلط على الأمر ! وأرجو أن تعذرني ، فما هي إلا
محاولة مكبر عرييد لا طاقة له بالبيان الدقيق المتدفق عما يريد . . .
كلا أيها الصديق ! ليس الأمر كله عريدة للنسيان ، ولا هروباً إلى
أوهام السكر من واقع مرهوب . . . ! كلا أيها المحترم . . . إنما هي
البراءة ! نعم البراءة ! البراءة من غفلة اسمها الاحترام ، ومن بلاهة اسمها
الوقار ، ومن جمود الأشكال والأوضاع . . .
براءة من غفلة ! أفهمت يا محترم ؟

لم تفهم بعد !

حاول مرة أخرى يا محترم ! إنها ليست عريضة . بل ثورة ! ثورة في منطق الأخلاق ومفهوم القيم يا محترم !

أما سمعت من قبل بثورة ريمان ولويتشوفسكى التى هدمت هندسة الرجل الطيب إقليدس . . . تلك الهندسة المستقرة الجامدة . . . كى تسمح للخطيين المتوازيين المسكينين اللذين كانا ممنوعين من التلاقى منذ عشرين قرناً ونيف أن يتلاقيا ويتعانقا . . . هناك فى اللانهاية ؟ وهذا شئ بديع . . . أليس كذلك ؟

ماذا ؟ لم تسمع بهذه الثورة ؟ ولا تفهم ماذا تعنى ؟

طبعاً طبعاً ! ما أغبانى !

على رسلك يا محترم ! أحسبك سمعت على الأقل بالبعد الرابع الذى أشاعه أينشتاين على كل لسان ؟

سمعت به ! هذا مفهوم ! فأينشتاين له على الأقل نصيب واحد من « الاحترام » وهو أنه « شئ » مذكور فى الصحف . . . وكل محترم يقرأ الصحف . . . وحيث إنك محترم . . . والباقي طبعاً مفهوم !

هذا البعد الرابع يا محترم هو أنا !

أنا وحياتك أنت هو تمثاله الحى الصارخ فى آذان الأبد ، إن الحقائق كلها حتى الخلق منها ليس لها مكان ثابت ، أو شكل ثابت ، أو موضوع ثابت . ومؤدى هذا أيها الصديق أن النجوم يجوز جداً أن توجد فى الوحول ! وأن الشريف يجوز جداً أن يكون مخموراً . ! وأن البر والإثم

لا يستمدان حقيقتها من المظاهر والأوضاع . . . هيات . . ! فالمسألة
أعقد من هذا بكثير ! الحقائق الإنسانية يا محترم هيات أن تنطوي في
قاعدة واحدة شكلية جوفاء . . . متعفة من كثرة ما نجشأها الموت !
هيات أن يكون هذا ؛ لأنه ليست هناك نقطة واحدة ثابتة في هذا
الكون المراوغ العجيب . . .

أتدري لماذا هو مراوغ وعجيب هذا الكون يا محترم ؟
لأنه يضح بالحياة ! . . . والحياة لا تعرف الانحصار والثبات . . .
أيها الثابتون الفضلاء !

وهذا ما أعنيه أيها الصديق حين أقول لك : إن حقيقى دائماً هنا ،
حيث أنا . . . ولا يمكن أن تتكيف بوجودك أنت هناك . . . ما دام بيننا
هذا الفراغ الملعون !

ماذا تقول ؟ ألم تفهم هذا أيضاً ؟
كنت أعلم هذا أيها المحترم منذ البداية ! فلم أعول كثيراً على هذا
الأمل الضعيف !

لا عليك يا محترم ! وفي سبيل الله زمرى أو سكرى !
لا ! بل اسمع ! لا أراى يهون على أن أتركك هكذا من غير أن تفهم
أو من غير محاولة أخرى هي الأخيرة . . . سأحشد لها قصاراي في
التوضيح والإقناع ، في كلمة واحدة بلغة عندي كل الأمل أن تفهمها
بغير كبير عناء !

لك أن تفهم الأمر أيها الصديق على هذا النحو إن شئت :

إني أفرط في الشراب حتى يسعنى أن أبول - نعم أبول ! - بما فيه
الكفاية ، على قيمكم الزيفاء ، واحترامكم الهزيل . . . أيها المحترم !
أرى وجهك احتقن !
أخيراً وصلنا يا جميل ! . . . وصلت أنا على الأقل . . . !
ها هنا أهبط أنا وأتركك حيث أنت . . . فطريقانا مختلفان منذ
البداية جداً كما تعلم - وإن ضمنا مركب واحد - إلى حين . . .

أكلة النيران

(إلياذة سوقية)

(..) فازت هذه القصة بالجائزة الأولى في سبارة عقدتها الإذاعة المصرية سنة ١٩٤٧ ..

إلى السائرين في الظلمة
وإلى من يلوح لهم - من أنفسهم - فجر
جديد

* * *

وأيضاً إلى الفتاة الباسلة الفلاحية :

جان دارك

البطلة الشهيدة التي أكلتها النيران .
أهدى صورة أختها المعاصرة التي تقنات
بالنيران لتعيش شهيدة في أرض
الأرقاء .

مصر الجديدة

أكتوبر ١٩٤٥

كنا جلوساً في مقهى « الشمس » نتحدث . كعادتنا في شئون السياسة وأسعار الصوف عندما ملأ علينا جو المكان نغم مرح رنيب من تلك الأنغام التي تبعثنا صناديق المشعوذين على الطريقة الإفرنجية . ثم ما لبثت أن وقفت قبالتنا تماماً فتاة مصرية الملامح ، مصرية السمرة ، تلك السمرة القريبة إلى القلب تدخله دون استئذان ، كان وجهها طبيعياً لم يلمح بالأصباغ والألوان ، وكان تعبير وجهها ساذجاً تكاد تشبه به وجوه الأطفال ، وكانت عيناها وما أروعها ! تحدقان بإنسانيهما الكبيرين البعيدى الغورى وجوه الجالسين . أما لباسها فكان من تلك السراويل التي كان يلبسها الرجال ثم بيعت لتجار الأشياء القديمة .

وبقيت واقفة برهة يسيرة ، تحرك رأسها إلى الخلف كي تنطرح

خصلات شعرها إلى الوراء وأحسب هذا كله لم يكن إلا استلفاً للأنظار
كى تتركز عليها ثم بدأت (تنشقلب) كما يفعل أهل هذه الصنعة .
وانتقلت من هذا إلى إيقاد شعلتين مركبتين على عصوين جعلت تأكل
ما عليهما من النار ، ثم (تبخه) من فيها فيملاً الهواء لهاً ودخاناً .
وطافت بنا كما طافت ببقية رواد المقهى ، وفي يدها الدف التقليدى
تجمع فيه القروش التى يحود بها بعضهم عليها . ووضع كل منا فيه شيئاً ،
حتى جاء دور صديقنا الحاج «سرور» فإذا بها تنظر في وجهه ثم تقول له
بلهجة تنبى عن ألفه : «إزيك» .

فماجت جماعتنا بالمرح ، وركبنا صديقنا هذا بالدعابة اللاذعة ، فقد
كان معروفاً بيننا بمجونه الذى يذهب أحياناً إلى حد غليظ مسرف في
الغلظة ، فلم نكن لنعجب من اتصال المعرفة بينه وبين أى امرأة على
الإطلاق . . .

ولكن أن يعرف «بهلوانة» فشىء جديد على كل حال لم يكن يخطر
لأحد منا على بال .

ولكن سروراً - على خلاف عادته - لم يكن يشاركنا في مرحنا هذه
المرة ، بل كان بادى الانقباض والجد يتابع نظره إلى الفتاة في دورتها على
الجالسين حتى انتهت منها وعادت إلى زميلها الذى كان يدير لها يد
الصندوق ، وكان ظهره إلينا ، فربنت على ظهره . وأمسكت هى
بإحدى يديه ، ورحلا عن المكان . وفيما هما يمران بنا تبينا وجه الرجل
فإذا به أشوه وجهه في الوجود : وجه مسلوق متآكل بلا أنف ولا عيين ،

كله قروح وآثار حروق وجراح !

وما غاب عن أنظارنا في زحام الشارع حتى ران علينا صمت عصبي
والقباض . ولعل هذا من أثر منظر ذلك الحطام البشري المشوه تأخذ بيده
فتاة ناضرة الحسن .

وأخرج «سرور» صندوق سجائره فجعل يدق واحدة منها على
المنضدة بخركة عصبية ، ثم أشعلها وهو شارد النظر ونادى « الندل »
فطلب منه فتجان قهوة آخر . والتفت إلينا وهو يعيد صندوق سجائره إلى
جيبه ، وقال بلهجة جادة رزينة لم نسمعه يتكلم بها قط :

صدقوني يا إخوان أننا نعيش على هامش الحياة .
فضحكنا منه ومن جده هذا الذي لم نألفه منه ، وقلت له أنا :
- لماذا يا أخى ؟ ألا نأنا لا نعرف البهلوانات وآكلات النار والزجاج
والمسامير ؟

فنظر إلى نظرة غريبة كنظرة رجل مجرب عرك الأيام إلى حدث غر ،
نظرة إشفاق خلو من الغضب . ثم قال بهدوء :
- هذه الفتاة يا صديقى - لو تعلم - ليس الكثير منا نحن السادة
المحترمين بأهل للنظر إليها مجرد النظر . . .

وجاءته القهوة وحسا قليلاً منها حسو المستأفى ، ثم اعتدل بوجهه إلينا
ووضع ساقاً على ساق ، وبدأ يتكلم :

منذ عام أو نحو ذلك نديت لعمل في مدينة « ص . . . » من مدن
الإقليم وأنا كما تعلمون لم أخرج من القاهرة طول عمري إلا لقضاء أسابيع

من فصل الصيف في الإسكندرية . فأنا لا أعرف أحداً في هذا البلد الذي أقيت نفسي فيه بحكم الوظيفة ، فركبني الضيق ذات يوم وعفت مجلس زملائي في العمل ، فقد كان ربي الطابع ثقيلاً على قلبي . فأخذت أضرب في الشارع الذي يشرف على النيل . حتى بلغت عند أطراف المدينة مقهى منعزلاً ، يبيع صاحبه فيه الشواء والشراب . فجلست وحيداً أحسو مشروى ، وأرقب جماعة من أبناء البلد كانوا جلوساً غير بعيد عني ، لا يكفون عن التمايل والخمس ، ثم يضحجون بالضحك في صوت واحد دفعة واحدة . ولا يلبثون أن يعودوا بعدها إلى السكوت راضين عن أنفسهم بعد أن أدوا واجب (المجال) بهذه الأصوات الصاخبة !

ولكن هذا المشهد لم يلبث أن فقد جدته وطرافته في عيني . وكاد الملل يعود فيستولي على نفسي كرة أخرى حيث ملأت جو المكان تلك الموسيقى الآلية التي سمعتموها هذه الليلة من هذا (الجوق) الصغير . وعرضت نفس هذه الفتاة أنعابها هذه الساذجة ، ثم طافت بالزبائن كما طافت الليلة . ولكن فريق أبناء البلد اتخذوا منها نوطاً لدعابتهم الصاخبة اللاذعة ، وتنادوا في التهكم عليها وعلى سراويلها وقمصانها الإفرنجي البالي حتى كادت الفتاة تنصرف بائسة من المكان كله لولا أن لمحتني في ركني الخافت الضوء ، ورأيت في عينيها الكبيرتين نظرة تردد ، فقد أكون أنا أيضاً سمعاً قاسياً فأردها خائبة . ولكنها حزمت رأيها آخر الأمر وسارت نحوي ، وأقرأتها بنظري ، فإذا وجه غض لطيف وعينان عميقتان كأنهما

نجمان بل بحيرتان ، فقد كانتا مملوءتين بالدمع الحائرين المقلتين والجفن . .
وملائي الإعجاب بقوامها المرهف كالسيف من أثر الرياضة التي
تكسبها رزقها ، وابتسمت لها وأشارت إلى مقعد أمامي ، فأزاحته
وجلست صامتة تنقر على المنضدة بأصابعها الرشيقة اللدنة ، وقد وضعت
الدف الفارغ فوق مقعد إلى جانبها ، ولما حضر الخادم بالشواء الذي طلبته
لها أخذت جانباً من الكباب ووضعت على قطعة من الخبز ، وحملت إلى
الرجل الذي يدير لها صندوق الموسيقى . وأسرت إليه بكلمات وريبت على
كتفه في رفق ، فاستدار الرجل إليها بوجهه ، فسقط عليه ضوء
المصباح ، ورأيت الوجه الذي رأيتموه . . . والحق أن هذا الوجه أثار في
جسمي قشعريرة وكاد يقطع شهوتي للطعام ، ولكن الفتاة عندما عادت
إلى ابتسمت لي ابتسامة شكران صافية صرفتني عن هذا الاشتزاز ،
فسألتها :

- أهو أبوك ؟

فقلت بغير اكتراث كمن يكره الخوض في هذا الحديث :

« نعم . . . هو أبي » .

ولكن بعد لقيات أكلتها صامتة - وأنا منصرف عنها إلى طعامي لا
أحدثها ولا أنظر إليها - لم تلبث أن أنست إلى وكأنما قد أنها ضميرها على
ملاقاة عطفي بالجفوة وكتمان الحق ، فرفعت رأسها إلى وقالت كالمتابعة ما
كان من حديث « لقد كذبتك . . . فهو ليس أبي . . . » .

وكانما سرها أنني لم أعلق على هذا القول ، ولم أسألها مزيداً من

الإيضاح ، فزاد شعورها بالأمن ، وانطلقت تروى لى قصتها :
« منذ سبع سنين كنت أعيش فى الإسكندرية مع أمى وزوجها - وهو معلم فى حرفتنا هذه - وكان فى حيننا رجل صاحب محبز يدعى «الحاج صبرى» وهو مشهور فى الحى كله بارتفاع الصوت وسرعة الغضب وطيبة القلب . . . ولم أكن فى بادئ الأمر أحبه ، فقد كانت بينى وبين ولده الوحيد سعد علاقة حب نبالغ فى إخفائها خوفاً من غضبه ، فهو أرملة ولم يتزوج ضمنا بسعادة وحيده «سعد» أن تتعرض لمكاره زوج الأب ، ولكننى لم ألبث أن استشففت فى وجهه الصارم طيبة شديدة تخفيها عن الأنظار كثافة شاربه الضخم .

. . . وبقى حيننا سرّاً بيننا طاهراً كما يكون الحب بين الصغار ، فقد كنت حينئذ فى الخامسة عشرة ، وكان هو يكبرنى بعام أو عامين على الأكثر . وتقدم لخطبى قريب لزوج أمى ، فركبتنى الحيرة ، ولم أستطع الرفض كما لم أستطع مفاتحة سعد ، فقد يحسبى أورطه فى الزواج منى ، والفارق بين طبقتينا كبير هائل !

وحدثت الفتاة فى كلى يحدق المعلم فى تلميذه حين يلقى إليه بما يعلم أنه فوق زرع عقليته :

« إنكم معاشر (الأفندية) تحسبون الفرن والمهلوان أهل طبقة واحدة هى الطبقة الدنيا ، ولكن الحقيقة أنك كلنا هبطت فى سلم المجتمع وجدت الحدود والفوارق بين الطبقات أشد وأصرم ، فالفرن - أعنى صاحب الفرن - ينظر إلى الواحد من أهل مهنتنا نظرة دونها نظرة القائد

الكبير إلى جندي المراسلة الذى يكنس له البيت ! وكان سعد إلى هذا
تلميذاً فى المدرسة الثانوية يعده أبوه للاندماج فى سلك «المطريشين»
فكيف يرضى بزواجه من مثلى ؟

كتمت عنه أمر الخطبة وظللت ألقاه خلسة تحت ستار الظلام الذى
فرضته الحرب ، والأيام تمر بنا هوناً حتى كانت الغارات على
الإسكندرية . . . أتذكرها ؟

فقلت : نعم أذكرها ولا شك ! . . .

فقالت «توات الغارات الواحدة منها إثر الأخرى حتى كانت الغارة
الكبرى . . . ونزل «الطوريد» تلك الليلة فهز الإسكندرية كلها ،
ونسف من باب سدره ما نسف .

وفى باب سدره كان المخبز الذى يملكه الحاج صبرى أبو سعد ،
والذى كان يسكن طابقاً بناءً فوقه . . . وهذا المخبز كانت مما عصفت به
القذيفة المشثومة فى تلك الليلة .

وطلع الصباح فإذا حبيبى ميت ، وإذا أبوه فى مستشفى المدينة بين
الموت والحياة . ظللت مسلوبة الرشاد يومين وقد كادت تذهب الصدمة
المباغته بعقلى فلم أصدق أن هذا الصبا الناصر قد ذهب ولن يعود ، ولكم
تمنيت أن الله قد جمع بيننا وأن لى منه ولداً أذكره بمرآه ، وأراه فى
تقاطيع وجهه الصغيرة ، ولكن هيهات . !

ودكرت أباه الذى أبقت عليه الأيام لتسقيه الحسرة على ولده الذى
ما كان يعيش إلا من أجله ، فذهبت أسأل عنه فى المستشفى ؛ فهو البقية

الوحيدة الباقية لى من حى المهيض الجناح ، فإذا به فقد البصر والأنف ،
وأصبح وجهه قطعة مختلطة صماء من اللحم الأحمر الشائه . وكأن الأقدار
كانت رحيمة به بعد كل هذا فسلبته الذاكرة والعقل .

وهو هذا الرجل الذى تراه الآن هناك : طفل أبله لا يعى ولا يفقه ،
ولا يرى ولا يشم . وآلم من هذا على النفس - على نفسى أنا - أنه لا
يتألم ؛ فهو إذ نسى ماضيه كله - لا إدراك لديه بسوء ما صار إليه . . .
حطام بشر ليس غير .

وقد ظل المرحلة الأولى من طور النقاها كالطفل الرضيع لا سيطرة له
على نشاط أمعائه . ولم يكن له عائل ولا أقارب إلا أبناء خالة كالغرباء
نرحوا معه حين نزع من الصعيد ، ونجحت تجارة الحبوب التى يعملون فيها
وكانوا يوردون له الدقيق الذى يصنع منه الخبز . . . بيد أنهم رفضوا هذا
الحطام ؛ كما تلفظ الأمواج حطام السفن الجارية التى حطمتها
العواصف ، فتلقيا على الشاطئ ، ولكن أهل الشاطئ يأبون على أشلائها
بجرد الراحة على أرض الوطن ، فيقذفون بها إلى اليم الذى لا يرجع .
لفظوه وأنكروه ؛ فما كان يملك إلا ذاك المخبز الذى كان مقاما على
أرض (حكر) ، والمخبز اليوم - كعقله وولده - ليس له وجود . . . فهو
فقير معدوم ، وويل ياسيدى لعزیز القوم إذا ذل .

ولكننى أنا - أنا الحطام الذى بقى له رفق يحس بواه . ولم ترحمه
الأيام كما رحمته بالنسيان - رأيتنى ملزمة برعايته ؛ أليس كان جارى فى
قلب حبيبى الذى فقدته وفقده ؟ فهو قسيمى فى البلوى كما كان قسيمى فى

الفرح به والأمل فيه ؛ لهذا أخذت بيده لأرعاه ولأعوله ولأحفظ فيه عهد ابنه وحييى . . .

ولكن زوج أمى أبى على هذا وعده جنوناً ، وخطيئى أيضاً رأى فى هذا افتتاتاً على حقوقه ؛ فهو يريد زوجة ترعاه وتربح لتتفق معه أو تتفق عليه ، أما أن تكون له زوجة تعمل لتكفل هذه « الرمة » التى لا صلة لها بها - فى نظر الناس كافة - فأمر لم يسمع به أحد من قبل ، ولا يريد أحد أن يسمع به قط .

وكانت عندى قلادة من الذهب صغيرة بعثها واشترت هذا الصندوق الموسيقى الذى تراه ، وهجرت الإسكندرية ومن فيها بعد أن دربت الحاج (صبرى) على إدارته ، وهى عمل سهل وقد خرج بالرعاية والعطف من سلطان بعض عاداته المرضية ، وتعلم شيئاً من ضبط النفس والنظام ، ولكنه لا يزال حيواناً أبله أو طفلاً بغير عقل ، ولا ماض ولا مستقبل !

وصمت الفتاة قليلاً كأنما لتشجيع شارد خواطرها ، ثم استطردت :
« ولكن السوق كاسدة ، وكثيراً ما لا ندر الموسيقى والألعاب التى أقوم بها أمام الجمهور ما يكفى إطعام فىن ، ومع هذا فأنا أحمد الله أننا لم نحرم الطعام يوماً » .

ونظرت نظرة شكر خالص إلى الطعام الذى أمامها ، ثم نقلت إلى بصرها وقالت :

- اليوم مثلاً لم نجتمع عشرة قروش من محلين قبل هذا المحل ،

وهنا . . . الحال كما ترى في حين أن أجر المبيت وحده يقرب من هذا المبلغ . . . ويتكرر هذا أسبوعاً كاملاً في بعض الأحيان ، ولكن الله يرزقنا على الدوام .

وسكنت قليلاً ، وشعرت - وأنا أهدق في ظلام الليل خلال النافذة - أن عينيها قد استقرتا على في نظرة تساؤل معلقة كأنها تسأل وجهي أن ماذا بعد أن دعوتها إلى الطعام فأكلت ؟ ولم تختمل نفسي هذا الظن الجارح ، ففقت كالمددوغ من مكاني ، ووضعت في يدها خمسين قرشاً ، واندفعت نحو الخادم لأدفع ثمن ما استهلك من طعام وشراب ، ورأيتها وأنا أنجه نحو الباب تنظر إلى ؛ ثم تهز كتفيها الرقيقتين تحت قبصها البالي ، كأنها تقول :

- أحسنت . . . أو أسأت . . . كل شيء سواء ، فإننا نعيش دائماً لنرى شمس الغد تتمخض عن نهار جديد كأمس الغابر .

وكان هذا آخر عهدي بها حتى رأيتها الليلة كما رأيتوها ، وصدقوني إذا قلت : إنه قد عرتني الليلة للقائها هزة لم أعهد لها في حياتي ، هزة استخزاء من إنسانيتي ، إنسانيتي التي تضع هذه حيث تظنونها جميعاً ، وتضع مثلي بين السادة المرموقين الموصوفين بالشرف والكرامة .
إنني أشعر بالخزي لأنني أنتسب إلى إنسانية تجعل هذه تأكل النيران لتدخل السرور على مثلي كي تعيش ويعيش من ترعاه ، إنسانية تافهة تهدر القيم وتنكسها !

وبصق سرور بصفة كبيرة كأنه قصد أن تكفى وجه الإنسانية
بأكملها ، ولكنها لم تلوث إلا سروال واحد منا كان الكرى يداعب
جفنيه . . ا

القاهرة مايو ١٩٤٥

فهرس

صفحة

٥	كلنا رفيق الأرض
٨	بين يدي هذه الرواية
١١	الفصل الأول : ديب الحياة
١٨	الفصل الثاني : الهزة الأولى
٢٢	الفصل الثالث : سى عز
٢٥	الفصل الرابع : الهبل المستباح
٣١	الفصل الخامس : الزنديق
٣٨	الفصل السادس : الكونسولتو
٤٥	الفصل السابع : يا بنت سقى
٥٠	الفصل الثامن : البرغوث
٥٧	الفصل التاسع : دقن السيسى
٦٣	الفصل العاشر : البساط أحمدي
٧١	الفصل الحادى عشر : الأميرة النائمة
٧٧	الفصل الثانى عشر : النافذة المفتوحة
٨٢	الفصل الثالث عشر : الطائر الصدى
٨٨	الفصل الرابع عشر : فى الشرك

٢٠٧

صفحة

٩٤	: س الغل	الفصل الخامس عشر
١٠٠	: المأخوذة	الفصل السادس عشر
١٠٨	: أنت مهجتي	الفصل السابع عشر
١١٧	: الربيع	الفصل الثامن عشر
١٢٥	: مع السلامة	الفصل التاسع عشر
١٣٣	: ومع السلامة	الفصل العشرون
١٤٠	: ظمان	الفصل الحادي والعشرون
١٤٦	: الجميز	الفصل الثاني والعشرون
١٥٢	: شيء واحد أكيد	الفصل الثالث والعشرون
١٥٧	: (تراجيديا هامة)	المخمور
١٩٣	: (إلياذة سوبقة)	آكلة الثيران

١٩٧٩/٢٢٨٧	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٦٧٢ - X	الترقيم الدولي

١/٧٧/١١٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)